كيمياء الصلاة ٤

@ketab.me
Twitter: @ketab_n
16.12.2011
Eqla3 Library
All rights reserved - eqla3.com

فيزياء المعاني

هيئات الصلاة : نمط عمارة لبناء الإنسان

د.أحمد خيري العمري

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

الكتاب مُهدى من: @ketab_n
إلى الأخت الفاضلة: @Ghadeer_A24

الدكتور
أحمد خيري العمري

(٤)

فيزياء المعاني

هيئات الصلاة: نمط عمارة لبناء الإنسان

@ketab.me

Eqla3 Library
All rights reserved - eqla3.com

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة كيمياء الصلاة

(٤)

فيزياء المعاني

هيئات الصلاة، نمط عمارة لبناء الإنسان

فيزياء المعاني: هيئات الصلاة-نمط عمارة لبناء الإنسان / أحمد خيري العمري .- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ١٠٨ص ؛ ٢٠ سم.- (سلسلة كيمياء الصلاة؛ ٤)

١- ٢١٦,٢١ ع م ر م ٢- العنوان ٣- العمري

مكتبة الأسد

2011=1432
دار الفكر - دمشق - برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

كيمياء الصلاة

٤

فيزياء المعاني

هيئات الصلاة : نمط عمارة لبناء الإنسان

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢١١٧,٠٣٦
الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-69-9
التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)
١٠٨ ص، ١٢ × ٢٠ سم
الطبعة الرابعة: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م
ط١ / ٢٠٠٨م

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

المحتوى

عن القوالب: عبوة المعاني ٧

الفصل الأول - القيام..: أداء ما يجب أداؤه ١١

الفصل الثاني - الركوع: قلب الصلاة ٥١

الفصل الثالث - هناك، عند السجود.. . . . . ٧٠

الخاتمة : آلية الاقتراب ١٠٧

عن القوالب: عبوة المعاني

عصرنا، عصر يدعي أنه ضد القوالب بالمطلق.. ويقول: إن القوالب قيود، وإنها زنازين وأقبية، تمنع الانطلاق، تمنع التحليق..

عصرنا يدّعي أنه عصر الحرية، عصر تحطيم القوالب، عصر يفخر أن لا شيء ثابت، وأن القوالب لم توجد إلا لكي تحطم..

لكن عصرنا، تمادى على ما يبدو في مفهوم تحطيم القوالب، حتى صار هذا المفهوم بحد ذاته قالباً، أو على الأقل، صار له سلبيات القوالب.. دون إيجابياتها..

ذلك أن إنكار إيجابيات القوالب، سيعني إنكار كل منجزات الحضارة منذ نشوئها الأول حتى اليوم..

بغير القوالب، ما كان يمكن لبناء واحد أن يرتفع، كان الطين سيظل في الأرض.. والحجر في الجبال سيظل حجراً..

بغير القوالب، كانت "العجلة" ستظل مجرد فكرة، وكان العالم سيظل يتعثر على قدميه؛ مشياً، زحفاً أو حبواً..

بغير القوالب، كانت المعادن ستظل مختلطة بعضها مع بعض، في باطن الأرض.. دون أي استغلال لها في السراء أو في الضراء..

بغير القوالب، كانت الأفكار ستظل هائمة على وجهها،

حرة طليقة في الهواء، دون أن ينتفع بها أحد، دون أن تتجسم في قالب الأبجدية الذي ينقلها، أحياناً كما الزكام (الايجابي!)، إلى الآخرين..

القوالب، هي الوسيط الوحيد الممكن، لنقل المعاني..

حيث لا قوالب هناك، لا يمكن نقل المعاني، لا يمكن تجسيدها..

وعندما تكون القوالب فضفاضة جداً، بلا قالب واضح أو محدد، فإن المعاني تتسرب من الثقوب.. كما لو أنه لا قوالب هناك..

القوالب، هي ما لا بد منه، لنقل المعاني..

أي أحد ينكر هذا يكون واحداً من اثنين: إما أنه لا يعرف شيئاً، أو أنه يعرف لكنه يريد أن ينشر "قالبه" هو..

وهذا لا ينفي أن بعض القوالب وجدت لتتحطم، وأن أخرى تنتهي صلاحيتها بعد مدة، ولكن هناك بعض القوالب، تتحدى الزمان والمكان، تصمد بوجه تغيراتهما.. ما دامت المعاني الكامنة المحتواة فيها حية.. وقادرة على بعث الحياة..

بعض المعاني، لا تعيش حقاً ولا يكون لها وجود إلا ضمن القوالب.. كما المواد المتسامية، لا يمكن أن يكون لها وجود إلا في القوالب المحتوية لها، المغلقة بإحكام.. أي تسريب لها.. أي فتح لسدادة القارورة المحتوية لها، سيقضي عليها تماماً، سيجعلها تتبخر و تتسامى.. دون أن تمر بحالة "وسط" ما بين المادة والبخار..

قليل مما يسمونه الحرية، يكون كافياً أحياناً، لقتل المعنى، إذا فتح القالب الذي يؤطر هذا المعنى..

عن أي قوالب، وأي معان نتحدث؟..

عن هيئات الصلاة، حركاتها وسكناتها، التي هي القالب الذي يؤطر المعاني ويحتويها..

حركات القيام، والركوع، والسجود؛ التي نظلمها، بل نظلم أنفسنا لو ظننا أنها مجرد حركات. ونظلم أنفسنا أكثر لو عددناها قوالب، مجردةً عن وظيفتها الأصلية.. حمل المعاني، والمحافظة عليها، وتجسيدها في الوقت نفسه..

عن هيئات الصلاة، التي تضم أعماقاً من المعاني، نجتهد في تقزيمها دوماً، فندع مجالاً لهذا ولذاك، ليقول عنها: إنها "مجرد هيئات" وإن "المهم هو ما في القلب"..

و "المهم ما في القلب" ليس قولاً خاطئاً بالمطلق..

إنما "ما في القلب"، لا يمكن أن يكون أصلاً إذا لم يكن ضمن القلب القالب..

والهيئات، هي ذلك القلب والقالب، الذي يحفظ المعنى الذي يجب أن يكون في قلب قالب، يحميه من التسرب، يحميه من الاختفاء، يحميه من أن يتسامى ومن أن يتوارى عن الوجود..

ويتمادى أصحاب نظرية "المهم هو ما في القلب" قليلاً، فيقولون: إن المهم هو أن يكون القلب متجهاً إلى الله حتى

لو لم يكن ذلك ضمن هيئة تحيط به، والمهم هو أن يسجد القلب ولو لم يسجد الجسد، والمهم هو أن تكون مع الله بقلبك، حتى لو كانت كل أطرافك في مكان آخر تماماً..

والكلام جميل، وهو سهل، ويمكن المضي فيه إلى ما لا نهاية، لكنه كأي شعار، أزمته الحقيقية عند التطبيق، عند الفعل..

لا أحد يقول: إن المعنى غير مهم، لكن اجتزاء المعنى، من قالبه، هو معادل تماماً، لمن يقول، أو يجرؤ على القول: إن الحركات، الهيئات، خالية تماماً من المعنى..

إلغاء "القالب" كما يوحي هؤلاء، سيؤدي حتماً إلى قتل المعنى، حتى لو كانت عملية إلغاء القالب هذه مدججة بالدفاع عن المعنى، وتعزيزه..

هذه الهيئات، أو القوالب، لها هندسة خاصة، تعبر عن المعنى، وتحتويه، وتتحد معه ..شكل هذه الهيئات، وهيئتها، أمرٌ لا ينفصل أبداً عن المعنى الذي تعبر عنه..

معرفة هذا، والإبحار فيه، سيقوي المعنى، ويكرسه..

وعندما يكرس المعنى، ويزداد قوة ورسوخاً، فإن "الصلاة" نفسها، ستؤدي دورها..

ودورها، عندما يؤدى، لن يبقي شيئاً على حاله، فيك.. بل سيقودك إلى حيث تكون شيئاً آخر..

سيعطي هذا المعنى، المعنى لحياتك..

وسيبدأ الأمر، من تلك الهيئات، التي يستخف بها بعضهم.. ويقولون: "مجرد هيئات"..

الفصل الأول

القيام..: أداء ما يجب أداؤه

القيام هو الهيئة الأولى من هيئات الصلاة، وهو يعامل كما لو أنه وقوف مجرد يتضمن قراءة فاتحة الكتاب، وسورة أخرى، ثم الدخول في هيئة أخرى..

وفي ظاهر الأمر، بل في سطحه العابر، سيكون الأمر ليس أكثر من هذا فعلاً، ما الذي يمكن أن يكون هناك من معنى، أكثر من هذا؟..

لكن العين لو دققت في هذا الشكل، لوجدت في الأبعاد الهندسية لذلك القيام، أبعاداً من المعاني، يجسدها مجرد فهمها متحداً مع القيام بها..

❖ ❖ ❖

لا يوجد "بناء هندسي" معزول عن القيم خلفه..

بل كل بناء، خلف أبعاده، له أبعاد أخرى تعبر عن العمق الداخلي فيه، مهما كان البناء، سواء كان بسيطاً متواضعاً، أم فخماً مزخرفاً، فإنه يعبر عن حقيقته الداخلية، أحياناً تعبر البساطة عن عمق، وتعبر الزخرفة

عن خواء، أحياناً تعبر البساطة عن سد الحاجات الأساسية، وتعبر الزخرفة عن عين فارغة لا يشبعها شيء..

وهكذا، فإن كل طراز معماري، ينتمي لحضارة ما، ويتماهى معها، يعبر عن جوهر هذه الحضارة، وعن قيمها الداخلية، بشكل هندسي لا (يسكن) فيه الناس فحسب، بل يحتوي قيمهم ونمط حياتهم أيضاً..

وكذلك فإن النمط المعماري في المجتمعات الإسلامية، كان متشابهاً رغم المسافات والقارات التي تفصل بينها، ذلك أنه كان يعبر عن قيم داخلية مشتركة..

وهكذا، فإن هذا النمط، عندما تآكل - في العالم الإسلامي كله - واستورد محله نمط عمارة أخرى، يعدونها أكثر معاصرة وحداثة، كان يعبر عن حدوث عملية تآكل وانهيار للقيم الأصلية، وورود قيم اجتماعية أخرى، جلبت معها عمارتها..

وهكذا فإن المنارة الإسلامية كانت رمزاً لشموخ وتفوق حضاريين، يوم كانت الحضارة الإسلامية هي المنارة - فعلاً - للعالم أجمع، وكان المجتمع الإسلامي منارة للعالم أجمع، وكان الإنسان المسلم كتحصيل حاصل "منارة" للناس أجمعين..

وكانت الباحة التقليدية في مركز البيت تعبيراً معمارياً عن مركزية تلك العلاقة التي تربط سكان البيت بالسماء.. وانفتاحهم أولاً، عليها..

وكان تداخل البيوت وتقاربها في نماذج "الحارات" التقليدية المنتشرة في بلدان العالم الإسلامي، تعبيراً معمارياً عن حالة تماسك كان المجتمع يعيشها فعلاً..

لست بصدد الاستمرار في ذكر أمثلة.. إنما هذه إشارات لتوضيح أن "الشكل الخارجي"، يعبر عن حقيقة داخلية، وأن للمعاني، هندستها أيضاً، والهيئات، هي ذلك الطراز المعماري الذي يحتوي في داخله على المعاني..

رغم ذلك، ننشغل أحياناً، بحذافير الهيئات، دون أن نحاول التنقيب فيما تمثله هذه الهيئات..

غير منتبهين، أن عملية تآكل القيم، التي حدثت على نطاق واسع، قد تكون قد نالت من هذه المعاني أيضاً..

الأمر الذي قد يجعل من الهيئات مفرغة من معانيها، حتى لو كانت "حذافيرها" مضبوطة بصحيح الأحاديث..

❖ ❖ ❖

ماذا تعني الهيئة الأولى، هيئة القيام؟..

ما الذي فيها، ما الذي يمكن أن يكون خلف هذا الطراز المعماري الذي ألفناه لدرجة أن لم نعد نلتفت إليه..

ما الذي يمكن أن يكون فيه غير هذا الوقوف بانتصاب؟..

ربما يكون هناك الكثير، خلف تلك الوقفة..

❖ ❖ ❖

فلنتنبّه هنا إلى لفظة "القيام" التي تصف هذه الهيئة.. الوصف هنا لا علاقة له بالوقوف المجرد؛ بل بالقيام.. والقيام يشبه الوقوف من زاويةٍ ما، لكنهما ليسا متطابقين.. وتشابههما قد يكون عابراً وسطحياً..

"القيام" أعمق بكثير، من مجرد الوقوف..

فلنتأمل في هذا..

القيام = النهوض

القيام، يعني كما هو واضح، التحول من وضع الجلوس، أو القعود إلى ما هو عكسه..

إنه يعني "النهوض" بكل ما في ذلك من معان، بكل ما في ذلك من إسقاطات معاصرة، وإسقاطات تاريخية، وإسقاطات "مطلقة": تتعلق دوماً بالوضع الإنساني..

القيام، هو "حزمة من المعاني"، يمكن أن تكون مقياساً لحياتك، تتعلق بك عندما تنهض من كبواتك، أو من سقطاتك، أو من كل ما هو متدنٍ، ومنخفض في حياتك..

القيام، بهذا المعنى، هو أن تنهض دوماً نحو الأعلى، أن تنهض دوماً من سطح الأرض، نحو قمم تساهم أنت في بنائها..

القيام، وهيئة "القيام" - بهذا المعنى - "رمز" لذلك المعنى العميق الكامن في الصلاة، المعنى الذي أؤمن شخصياً - من تلاقي كل ما سبق وتلاقحه - أن الصلاة

يمكن أن تساعدنا على القيام به، كدورة تدريبية، نعيد من خلالها صياغة أنفسنا، ونهيئها لإعادة صياغة العالم..

هيئة "القيام"، هي الوضع الذي يختصر هذا، ويرمز له، ويعبر عنه..

بعبارة أخرى: طراز العمارة المتجسد في وقفتنا تلك، يعبر عن ذلك المعنى العميق المرتبط بالنهوض، بكل ما هو ضد القعود..

أنواع من القيام، لكن النهوض واحد !

وليس كل ما هو "ضد القعود" إيجابي بالضرورة..

فالقيام أنواع، وهناك أنواع من القيام يكون الموات أحسن منها.. يكون القعود أفضل منها..

هناك ثلاثة أنواع من القيام، واحد منها حتمي وقسري، ولن نملك أمامه خيار، إنه يوم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٨٣/٦]، بعد حياة ربما كانت خالية من الحياة، بعد موت تلا حياة، لم تكن سوى موت مع أداء بعض الوظائف البيولوجية..

وهناك "قيام"، قد يكون أسوأ من القعود، إنه قيام الذين ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٥].. إنهم قد يرتفعون في البنيان، قد يكون لديهم كل مظاهر النهضة، لكنهم، بما أن أساس نهوضهم هذا قائم على الاستغلال، على أكلهم الربا، فإن قيامهم هذا هو مجرد قيام من يتخبطه الشيطان من

المسّ، مجرد مظهر قائم، خالٍ من المعاني العميقة للقيام..

وهناك ذلك القيام الآخر، القيام بالقسط، الذي هو فحوى وجوهر "وجودنا كله" ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾ [الحديد: ٢٥/٥٧]..

إنه النهوض الحقيقي هنا، المستند على الكتاب، والميزان، الذي ينتج نهوضاً عادلاً متوازناً، نهوضاً لا يقوم على ظلم أحد، ولا على إجبار أحد على "القعود"..

إنه ذلك القيام المتوازن، الذي الكتاب قوة دافعة له للنهوض، ويجعل الكتاب في الوقت نفسه بوصلة لهذا النهوض موجهة له، وحاكمة نهائية على نتائجه وعلى استقامته..لا نهوض حقيقي إذن بلا هذا الكتاب..

كل النعم خاضعة لهذا القانون

والإشارة القرآنية التي وردت هنا، إلى الحديد الذي فيه ﴿بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ هي إشارة إلى كل الموارد والثروات التي أودعها الله في خلقه، والتي يمكن أن تستعمل دوماً باتجاهين، ويكون الاتجاه مرتبطاً بنوعية قيام الناس، هل هو قيام بالقسط مستند إلى الكتاب ومتوازن به؟..

أم إنه قيام كقيام من يتخبطه الشيطان من المسّ؟..

القيام الأول سيتجه نحو إيجاد المنافع من الحديد.. والثاني سينتج البأس الشديد..

ولو التفتنا حولنا، في هذا العالم، لوجدنا مظاهر للتطاول قد تشبه، في بعض من جوانبها القيام.. لكن، مع كل البأس الشديد الناتج عن هذا التطاول، نستطيع أن نحدد إن كان قيام من يتخبطه الشيطان ويقوده..

أم إنه قيام بالقسط؟..

ناهيك عن قعودنا المزمن طبعاً..

تحديد اتجاه القيام

القيام، هو ذلك "الفعل" الذي يستجيب لأمر الله عز وجل ..﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٨]..

ذلك أنه ليس أي قيام، بل قيام تتحدد حركته، واتجاهها بأن تكون لله..

ولنتنبّه هنا، أن هذا الأمر تحديداً جاء في سياق الأمر بالمحافظة على الصلوات..

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٣٨].. فالمعنيان هنا يرتبطان بعضهما ببعض. القيام، بالمعنى الأوسع للنهوض، والصلاة بصفتها هذه الدورة التدريبية، على قيامك بدورك في حياتك..

"أن تقوم بدورك"..

أن تكون قائماً، يعني أن تكون فاعلاً.. أن تكون قائماً بدورك.. أن تؤدي دورك وواجبك..

ووضعية "القيام" - كهيئة - تحمل هذا المعنى معها، حتى لو لم نتنبّه له ولم نربطه، في غمرة انشغالنا بالتفاصيل، عن المعاني.. النص القرآني، ذاته، يشدنا من تلابيبنا، يلفت ألبابنا نحو ذلك.. نحو الربط بين القيام، وبين قيامك بدورك..

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المعارج: ٧٠/٣٣]..

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٣/٧٥]..

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: ١١/٧١]..

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٥٩/٥]..

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود: ١١/١٠٠].

بعض معاني الآيات هنا، قد تجلب إلى الذهن المعنى المجرد للوقوف، كما في امرأة إبراهيم التي كانت "قائمة"، واللينة "القائمة".. لكن هذا المعنى سيذوب في المعنى الأكبر للقيام، معنى أداء الوظيفة والواجب..

فامرأة إبراهيم لم تكن واقفة بسكون، لكنها كانت تؤدي واجب الضيافة، تؤدي دورها ضمن النمط الاجتماعي الذي عاشت فيه..

والنخلة لم تكن واقفة بانتصاب فحسب، بل كانت قائمة على أصولها لأنها تنتج و "تقوم" بدورها الذي خلقت من أجله..

وهكذا فإن المعنى سيتوضح أكثر وأكثر عندما نقارن بين "قرى قائمة" و "قرى حصيدة"..

فالقرى القائمة هي ليست قرى واقفة بالتأكيد؛ أما "الحصيدة" فهي تلك التي انتهى دورها، فالحصيد هو ما قطع بالمنجل، وقطعه هنا يدل على انتهاء دوره وكفه عن القيام بأي وظيفة..

وتكون القرى القائمة - بالتضاد مع الحصيدة - هي تلك التي تؤدي دورها وتقوم بوظيفتها.. هي تلك التي تنتج (.. وليست تلك التي تستهلك فقط والتي ستعدّ حصيدة هنا)..

وضمن هذا المعنى ستكون الشهادة القائمة هي شهادة الفعل لا القول فقط.. شهادة تطابق الرؤية مع السلوك، والفكر مع التطبيق..

وهذه المعاني كلها، ستصب في المعنى الأساسي للقيام: القيام بدورك في الحياة..

القيام بالدور: من الفرد إلى الأمة

بين كل هذه الآيات، التي ترسخ المعنى الأعمق للقيام، تبرز آية تنير الدرب نحو كيف يكون الفرد قائماً، صحيح أنها آية تتحدث عن فرد استثنائي جداً، فرد نادته الملائكة، بينما هو قائم يصلي..

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/٣٨-٣٩]
- فزكريا هنا كان قائماً يصلي، وكان ذلك يعني ليس هيئة القيام فقط؛ بل كان يعني أنه كان قائماً في حياته أيضاً، تعني أنه كان يقوم بدوره في الحياة..

كيف؟..

كان زكريا قد كفل مريم، ولم تكن هذه الكفالة تعني الإنفاق والإعالة فقط، لكن الآية تشير أيضاً إلى أداء دور تربوي واضح، فقوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣/٣٧] يشير إلى أدائه دور المراقبة والتقويم المستمر، الذي أنتج امرأة عفيفة طاهرة، هي مريم..

وذلك كله جعله مستحقاً لتلك البشارة، بشارة يحيى، وهي ليست مجرد بشارة عادية بإنجاب متأخر، بل هي تحقيق دعاء زكريا.. رغبة سابقة له، ألا يذره فرداً ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٩]، أن يستطيع، عبر هذا الابن، أن ينقل قيمه إلى المجتمع.. لذا جاءت البشارة بيحيى بكونه مصدقاً وسيداً وحصوراً.. إنه ليس مجرد ذكر آخر يحفظ اسم العائلة من الانقراض، لكنه "الإنسان" الذي يحفظ القيم، ويمارسها، الإنسان القائم بدوره، بواجبه، والحاصل على حقوقه بناءً على أدائه لواجبه أصلاً..

وكان الإنسان القائم، في هذه الذرية، التي بعضها من بعض، إنساناً فرداً يبذل الجهد ليكسر فرديته، يحمل الشعلة في كل جيل فردٌ واحد أو اثنان لا أكثر، ليوصلها إلى الجيل التالي، لفرد واحد أيضاً..

والتحدي الذي يواجه هذا الفرد، الإنسان القائم، هو أن (يحمّل) الشعلة إلى عدد أكبر من الأفراد..

عدد يتحول معه (القيام) من الفرد؛ من الإنسان.. إلى الأمة..

فتصير "الأمة قائمة"..

❖ ❖ ❖

لن يتأخر مجيء هذه الأمة القائمة، مع أن زكريا لم يشاهدها عياناً، ومع أن يحيى ابنه الوحيد قتل نتيجة محاولته نقل الشعلة إلى الجيل..

لكن جهوداً من هذا النوع لا تثمر مباشرة، بل يكون الحصاد بعد حين..

وفي سورة آل عمران نفسها التي التقينا فيها بزكريا وهو ﴿قَآئِمٌ يُصَلِّي﴾ [آل عمران: ٣/٣٩] نرى جهوده تتلاقح مع جهود أفراد آخرين، منهم ابنه البشارة يحيى، ومنهم مريم التي كفلها وابنها، ومنهم آخرون لا نعرفهم ويعرفهم ذاك الذي لا ينسى أحداً، وتثمر تلك الجهود جميعاً، على المدى البعيد.. في إنتاج أمة قائمة..

﴿۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/١١٣-١١٤]..

إنها الأمة "القائمة" إذن، القائمة بدورها، ودورها ليس تلاوة الآيات قراءة وسجوداً وتعبداً فقط، بل هذا هو التدريب الضمني للقيام بما ينبغي القيام به: الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، المسارعة في الخيرات..

تلك هي الأمة القائمة، الأمة التي أداء الواجب فيها يسبق المطالبة بالحقوق، والتي تكون الحقوق فيها ناتجة عن أداء "الواجب"..

إنها "الأمة القائمة" التي يغرس فيها " القيام بالواجب" بحيث إنه يكون تلقائياً وبدهياً، كما التنفس والطعام، دون أن يكون ذلك محض شعارات، وقوانين ينتظر مؤدوها الفرصة الأولى للتفلت منها..

كيف يحدث ذلك؟

عبر العقيدة الدينية، التي ستجعل "القيام بالدور" يدخل في كريات الدم الحمر والبيض والنخاع وتلافيف الدماغ.. كما الجنة والنار والرغبة في المغفرة..

وليست "الأمة القائمة" مجتمعاً فاضلاً لا يخطئ، فهذا خيال لن يتحقق، ولكنها أمة، عدد الأفراد الذين يقومون بدورهم فيها، أكثر من أولئك "العاطلين عن العمل" (رغم وظائفهم) حتى أولئك الأفراد ليسوا كاملين، في المطلق، لكن آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعمل على وضعهم دوماً على طريق "القيام" بأدوارهم..

القيام من كل ما يجعلهم على سطح الأرض..

القيام، كهدف من أهداف وجودنا، على هذا الكوكب..

وهذا كله، طال أم قصر، هو المعنى المتضمن في هيئة القيام، في ذلك الوقوف الذي نقفه عند الصلاة..

إنه الوقوف بشموخ، بانتصاب المقتدر، الوقوف كنخلة معطاء، قائمة على أصولها، صامدة بوجه الريح، فاعلة بوجه اليأس، منتجة ضد الجدب..

ذلك الوقوف، هو رمز "معماري" لقيامك بدورك، لقيامك بما كلفك به الله، إنه رمز معماري لما يجب أن تعمره، في نفسك وعبر نفسك، إنه "الهيئة" التي تعبر عبرها، عن استجابتك لأمره تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٨]..

القيام هو هذا، هو دليلك على أنك حي وقادر، وأنك مؤهل لما كلفت به، مؤهل للنهوض، مؤهل لأن تقوم، لأن ترفض القعود؛ ترفض قدر القعود، لأن الله كتب عليك القيام، وها أنت ذا "تنبعث" من نقطة الموات واللافعل، إلى الحياة.. والفعل..

ليس هناك، في هذا العالم كله، خيال يمكن أن ينحت هيئة تدل على الفاعلية، على القيام بهذا الدور، على النهوض، مثل هيئة القيام هذه..

ليس هناك، نمط عمارة، في العالم كله، يمكن أن يجسد، دورك في الأرض، مثل وقوفك الشامخ هذا..

فلسفة "الصمغ" الاجتماعي: ذوبان "الأنا" في "النحن "

في هذا الركن، بالذات لارتباطه مع سورة الفاتحة، تبرز إحدى أكثر الوظائف وضوحاً وأهمية من وظائف الصلاة..

إنها وظيفة التماسك الاجتماعي التي تتماهى فيها علاقة الفرد بالجماعة و هي علاقة ملازمة لمعاني الفاتحة في الصلاة حيث إن النص كله من أوله إلى آخره يتحدث بصيغة الجماعة فيكون الفرد ملزماً بقراءتها بهذه الصيغة حتى لو صلى منفرداً في غرفته أو في الربع الخالي أو على سطح القمر.. إنه يقرؤها بصيغة الجماعة فيكون في هذا- لو اقترن بالوعي- تمثل لجماعة المسلمين كلها.. بمفهوم يخرج المصلي من إطاره الفردي الضيق..

هذا المفهوم المجسد في الفاتحة والمتماهي مع القيام يمثل هذا الذوبان الفريد للأنا في "النحن" التي هي العلاقة المثلى بين الفرد والمجتمع حسب الرؤية القرآنية. حيث "الأنا " تصب في صالح "النحن" التي هي رمز واسع لا للجماعة فحسب، ولا للمجتمع فقط، ولكن لمفهوم "الأمة" بشكل يتخطى حدود الزمان والمكان..

إنها صيغة تجعل الفرد يعي أنه جزء من هذه الأمة وأن جهوده لا تذهب هباء ولا سدى، بل إنها تتراكم مع جهود آخرين يشكلون معاً - كما تشكل معه- الإطار الأساسي لهذه النحن..

ومع هيئة القيام يتجسد ذلك أكثر في أن قيامك بدورك، أساس في علاقتك بالأمة: وأن "المردود" النهائي لذلك، عبر قيام الآخرين بدورهم سيعود عليك فرداً... وعليهم جماعةً.. وعندها سيكون للقيام أبهى وأوضح معانيه: النهوض.

وهنا يصير لمفهوم "صلاة الجماعة" معنى آخر غير زيادة الأجر، بل تصير صلاة الجماعة تعبيراً شعائرياً عن تماسك المجتمع ليس من ناحية قوة الروابط الاجتماعية؛ فحسب بل من ناحية أنه يتجه باتجاه واحد، وكل من أفراده لم يتخل عن "ذاته" و "أناه"، بل جعلها تصب في ذات المجتمع وأناه الجمعية.. أي في الكيان الذي يحقق فيه هذا المجتمع مثله وأهدافه..

كل الشعائر تمارس هذا الدور بطريقة أو بأخرى ما دامت تؤدى بشكل جماعي.. لكن الصلاة بخاصة هي "الصمغ الاجتماعي" الأكثر فاعلية وقوة.. إنها تجعل الفرد يشعر فعلياً بذلك عبر حميمية التماس مع الآخرين الذين سيكونون معه على الصف نفسه وباتجاه القبلة نفسها..

فلسفة "الأنا في النحن" والصمغ الاجتماعي، تتجسد أكثر ما تتجسد في صلاة الجماعة؛ حيث يتساوى الجميع في شعيرة تذيب الفوارق وتلغي الطبقات.. حيث يقف كتفاً بكتف، قدماً بقدم الوزير والفقير، وأولئك الذين فوق وأولئك الذين تحت، الكل في صف واحد.. في "رمز" لما

يجب أن يتحقق خارج "الأوقات الخمسة" عبر تحقيق "القيام" الاجتماعي ..بكل معاني العدالة المتضمنة فيه...

اليمين على الشمال

لا أرغب طبعاً، في الخوض في تفاصيل طائفية، أو مذهبية..

لكن بما أننا نضع اليمين على الشمال فعلاً، فهلا تأملنا في ذلك؟..

إننا نؤمن طبعاً بما هو متواتر من سنة الرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي أمرنا أن نصلي كما رآه صحابته يصلي..

لكننا نؤمن كذلك، أن خلف كل سكنة، وكل حركة، في صلاته - عليه الصلاة والسلام - معنى، نحاول تتبعه، واتباعه، وتجسيده، بالضبط كما نتحرى دقة الهيئة..

اليمين، إذن، فوق الشمال..

فلنتأمل في كل واحدة على حدة أولاً.. ثم في اليمين، على الشمال..

اليمين، إذن..

نتأملها.. قد نعتقد أنها محض أداة.. لا فرق كبير بينها وبين الشمال..

لكن لا، الأمر ليس كما نظن عند الوهلة الأولى..

الأمر ملغوم برموز ومعانٍ.. قد تطيح بنا إن لم نفهمها..

❖ ❖ ❖

اليمين.. قرآنياً.. أخذت معنى عميقاً، ذا بعد مستقبلي / أخروي..

فصحائف الأعمال، تلك التي ستحصي علينا كل ما فعلناه في هذه الدنيا، ستوزع علينا بطريقة معينة..

بحيث إن أعمالنا، لو كانت قدمت بشكل يغير هذا العالم نحو الأفضل؛ فإنها ستقدم لنا بأيماننا.. والعكس، صحيح ..﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٧١] ..﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/١٩] ..﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/٧].. سيكون اليمين يومها تلك البشرى.. وذلك الخبر السار..

❖ ❖ ❖

ولأن الكتاب الذي يقدم باليمين، يحدد موقع الشخص أخروياً، باتجاه اليمين، فإن "اليمين" صار موقع أولئك الفائزين يومها..

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٢٧-٢٨] ..﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٣٨] ..﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٩٠-٩١].

وهكذا يصير لليمين معنى الفوز والنصيب السعيد، وهو النصيب المرتبط بالعمل والجهد الدؤوب أرضياً، ولا علاقة له بمفهوم المصادفة العبثية التي تهبط على من لا يستحق..

ولهذا فإن أصحاب الميمنة، وأصحاب اليمين، هم أولئك الذين انشغلت أيمانهم - في الدنيا - بصنع دنيا أفضل، بصنع عالم بشروط أكثر عدالة وتوازناً..

"اليمين" في الآخرة، مرتبطة باليمين في الدنيا.. على الأخص بعمل هذه اليمين، بما بنته.. وأنتجته وشيّدته..

اليمين مصداق للرأس..

حيازة الموقع هنا، تعني أن حياتك الأرضية لم تقتصر على مجموعة من العقائد والأفكار آمنت بها، وتحدثت عنها هنا وهناك، كلما خالفك أحد، أو لم تجد شيئاً لتفعله..

ارتباط اسم الموقع الأخروي باليمين، باليد عموماً، يعني أن حيازة هذا الموقع، تتطلب عملاً يدوياً "يصدق" ما كان في العقل.. أو في القلب.. إن شئتم..

إنه أن تعمل وفق ما تؤمن به، لا أن تترك إيمانك بفكرة محلقاً في برج عاجي، أو في قفص تحمله في رأسك..

أما إن لم تعمل، أو عملت بما يخالف، باليد الأخرى، فإنك تعلم قطعاً أن اليمين هناك لن يكون موقعك..

❖ ❖ ❖

من اليمين بدأ الأمر...

ولو عدنا إلى الوراء، لوجدنا أن وحياً جاء بواحدة من أهم النبوات عبر التاريخ، جاء من الجانب الأيمن..

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: ١٩/٥٢]..

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: ٢٨/٣٠]..

اختار الله الشاطئ الأيمن، ليوحي إلى موسى.. ليبدأ وحيه من هناك..

لقد اختار الجانب الأيمن.. ليدلف الوحي منه إلى قلب موسى وعقله وكل كيانه..

الأيمن تحديداً..

هل هذه مصادفة؟ ..هل يمكن أن تكون مصادفة؟..

❖❖❖

لكن أمر اليمين لم ينته عند بدء الوحي، مع موسى خصوصاً..

فبعد قليل، ونحن لا نزال في الجانب الأيمن سيأتي ذلك السؤال:

﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [طه: ٢٠/١٧]، إنه اليمين مجدداً.. وسيأتي الرد ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ

عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ [طـه: ١٨/٢٠]..

لكن ما في يمين موسى، سيكون له مآرب أخرى فعلاً. مآرب أكبر بكثير من تفاصيل الحياة الصغيرة. ما في يمينك يا موسى سيكون له دور في تغيير العالم من حولك.. ما في يمينك يا موسى سيقود الثورة ضد فرعون، وسيقود عملية الإصلاح الاجتماعي لقومك..

ونحن نعرف ما جرى، مع ما في تلك اليمين..

مع السحرة، مع فرعون..

ومع ذلك البحر؛ يوم انشق البحر ليسهل الخروج..

وكل ذلك مرَّ بما في اليمين..

الموعد عند اليمين

لكن الأمر لم ينته هناك..

فبعد الخروج، والنجاة من فرعون وآله، كان هناك الوعد الإلهي، مرة أخرى في الجانب الأيمن..

﴿يَـٰبَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَـٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَـٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه: ٨٠/٢٠]..

مرة أخرى.. الجانب الأيمن..

وعندها "المن والسلوى"..

من اليمين، إلى اليمين..

◆ ◆ ◆

سيقول أصدقاؤنا المتثاقفون، من أولئك الذين لا يقتنعون بشيء لأنهم لا يؤمنون حقاً بشيء.. إنما هذه أساطير الأولين.. اخترعوها هم.. وصدقوها.. وها أنتم أولاء تصدقونها أيضاً.. إنها محض خرافات وأوهام.. محض ميثولوجيا..

حسناً إذن، دعوهم يقولون، لعلهم لا يحبون الميثولوجيا.. ما رأيهم إذن بالأنثروبولوجيا؟..

ما رأيهم في أن فكرة "اليمين" - كرمز للخير والصلاح - عميقة جداً في التراث الإنساني عموماً، وأنها موجودة في حضارات مختلفة ومتباعدة، بعضها وثنية - شركية، مثل مفهوم التاغترا الهندوسي، وبعضها سماوي توحيدي، مثل الموروث اليهودي؟ سيقولون: إنها مجرد أساطير تناقلتها الشعوب في تلاقحها، وقدستها كما تقدس كل قديم.. فلا تعظّموا الأمور وتصغروا عقولكم.. ما أهمية وضع اليمين على الشمال؟..

حسناً.. لا تحبون الميثولوجيا، ولا الأنثروبولوجيا..

ولكن هل تجرؤون على إنكار البيولوجيا؟!..

❖ ❖ ❖

وقبل الدخول في البيولوجيا، هناك مقدمة قرآنية لابد من الغوص والتنقيب فيها.. لأنها ستكون المدخل الذي يفهمنا ما ستقوله البيولوجيا في اليمين..

اليمين ذات مرة..

إنه فجر التاريخ، تقريباً..

لا نعرف بالتأكيد على وجه التحديد متى، لكنه تاريخ فجر التاريخ.. تاريخ ما قبل موسى.. بالتأكيد..

كان العقل الإنساني لا يزال يحبو، لا يزال يحتاج إلى أن يقف على قدميه.. كان يحتاج دفعة قوية ترفعه لتضعه في مصافّ الفعل والإنجاز..

❖ ❖ ❖

وهناك، على ضفة النهر، لا نعرف إن كان الأيمن أو الأيسر، لكننا نعرف أن هنالك حضارة نشأت ما بين النهرين، وتطاولت وازدهرت.. لكن أسسها كانت على غير ما يرام..

❖ ❖ ❖

وهناك، المدينة خالية.. هجرها سكانها مؤقتاً.. فقط من أجل الاحتفال بعيد ما على ضفة نهر ما (لعله كان الأيسر؟)..

والمعبد خال من المتعبدين.. ولكنه لم يخل من معبوداتهم.. اصطفت الأوثان جنباً إلى جنب.. تمثل كل الأسس الخاوية التي تطاول عليها البنيان..

وهناك، بين الضفتين، أقرب إلى الجانب الأيمن، كان هناك فتى يقال له: إبراهيم..

لم يذهب مع قومه إلى العيد.. بل قال: إنه سقيم.. لم يكن يكذب.. كان سقيماً فعلاً.. سقمه كان ناشئاً عن ذلك الفارق الهائل بين الحقيقة التي في رأسه، والواقع الذي يراه من حوله..

كان ذلك الفارق مؤلماً لدرجة السقم.. وليس ذلك نادراً، أن تشعر بألم ما في أعماق روحك، يتمظهر في مرض ما في جسدك.. ويكون جذره شعورك الصادق بأنك لا تستطيع الاستمرار فيما لم يعد ممكناً الاستمرار فيه..

يومها قرر إبراهيم، أن يعالج سقمه من جذوره.. لا أن يعالج أعراض السقم بدواء أو عقار أو خلطة أعشاب..

لا، السقم هذه المرة، سيجتث من جذوره..

❖ ❖ ❖

دخل إبراهيم المعبد..

في داخله لم يكن هناك أي إيمان بأنها مجرد تماثيل وأوثان صنعها قومه ليعبدوها.. كان يعلم أيضاً أنها أكثر من مجرد ذلك، إذ إنها تعبر عن مصالح وأسس بنى عليها قومه وآباؤهم مجتمعهم..

دخل إبراهيم المعبد، وهو خال من الناس، لكن إبراهيم كان ممتلئاً بالأفكار، كان ممتلئاً بالحقيقة..

وكان قد "خطط" بوضوح لشيء ما، شيء لجسر الهوة بين ما هو حقيقة، وما هو كائن.. شيء يخلصه من سقمه..

ثم إنه سأل الأوثان.. وجه إليهم الأسئلة..

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٩١-٩٢]..

هل كان يداعبهم؟ هل كان يمازحهم؟.. ربما كان يستفزهم، لكن الموقف كان جاداً وخطيراً، لا يحتمل المزاح..

لعل الأسئلة وضعت من أجلنا كي نربط هذا المشهد، مشهد المعبد، بمشهد آخر، يتوازى ويتقاطع ويتكامل، مع مشهد المعبد..

إنه مشهد إبراهيمي أيضاً، بل هو إبراهيمي بامتياز..

تلك الليلة التي أشرق فيها العقل الإنساني..

الليلة التي اكتشف فيها الإنسان، أن بإمكانه أن يسأل، وأن يجيب عن الأسئلة..

❖ ❖ ❖

المشهد الآخر كان عن تلك الليلة، التي تمكن فيها المنطق الإبراهيمي، من تحطيم قوة المعبودات، استوعبها، ثم طردها الواحد تلو الآخر، عبر آلية رفضت طبيعة الأفول التي كانت جزءاً من هذه المعبودات..

وكانت تلك التساؤلات معاول هذا المنطق الإبراهيمي، في هدم الإطار النظري للشرك بالله، ولعبادة تلك المعبودات الآفلة..

❖ ❖ ❖

وتوازى هذا المشهد في بيئة أشرق فيها العقل، مع مشهد المعبد، والتخلص من السقم.. وتحطيم الآلهة..

في المشهدين، كان هناك تحطيم الآلهة: مرة عبر نمط التفكير، المنطق الإبراهيمي..

ومرة، فعلاً، عبر المعول، المعول الذي كان بيمين إبراهيم..

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٩٣]..

اليمين مجدداً..

لم يكن رأس إبراهيم وحده هو الذي فتح الدرب إلى عالم جديد..

بل كان معه يمينه.. يمين إبراهيم..

بورك ذلك الرأس..

وبوركت تلك اليمين..

اليمين!..

❖ ❖ ❖

عندما نضع المشهدين، بتوازيهما، وترابطهما، وتكاملهما، بعضهما أمام بعض.. ونضع كل جزء منه أمام ما يقابله، أو يساويه.. فإننا سننتهي بالمنطق الإبراهيمي، واليمين الإبراهيمي.. وبينهما علامة المساواة..

فلنحفظ ذلك كله، ونتذكره، إذ إنه مدخلنا الأساسي إلى ما تقوله البيولوجيا.. في اليمين والشمال..

للبيولوجيا قولها في اليمين

مع أن موضوع نصفي الدماغ (الأيمن والأيسر) قد عومل أحياناً دونما عمق، وروجت له وسائل الإعلام بطريقة الوجبات السريعة، المبهرجة لكن فاقدة القيمة الغذائية، وهو الطرح الذي يفقد الموضوع جديته، ويضعه في زحمة الأسئلة السطحية والتعميمات..

لكن هذا لا ينفي أن خلف الركام المبهرج البراق، هناك حقيقة علمية جادة ينبغي التعامل معها، والاستفادة منها..

ليست نظرية.. ليست فرضية.. ليست احتمالاً..

بل هي "حقيقة" بيولوجية، قد تضاف إليها لاحقاً بعض التفاصيل، توضح وتزيد التوضيح، لكن لا شيء سيغيرها..

❖ ❖ ❖

ما هذه الحقيقة؟.. وكيف عوملت بسطحية وتبسيط مبالغ فيه؟.. إنها حقيقة أن دماغ الإنسان له - تشريحياً - شقان، أيمن وأيسر..

وأن كل شق من هذين الشقين، يمتلك حزمة وظائف مختلفة عن الشق الآخر..

وأن هذه الحزمة الوظيفية، تعكس نمطاً معيناً من الطبيعة الوظيفية لهذا الشق أو ذاك..

التسطيح الإعلامي كان في التعامل مع هذه الحقيقة على أن كل شق يعمل بمعزل عن الشق الآخر، وأن تغلب

هذا الشق أو ذاك، كاف لتفسير وتوصيف "الإنسان"، حيث يقال: إنه "إنسان بدماغ أيسر" أو "بدماغ أيمن"..

لذلك فإن من نمط الأسئلة الشعبية الرائجة في استطلاعات ما يسمى بعلم النفس الشعبي التي تسطح الأمر، مثل إن كنت تحب الرياضيات، أو الموسيقا، أو تفضل الدراسة وأنت جالس خلف مكتب، أو حين تمشي.. إلخ..

هذه الأسئلة، والحكم بناء على مجموع الردود، تؤدي غالباً إلى نتيجة سطحية، ذلك أن نصفي الدماغ الأيمن والأيسر ليسا مستقلين لهذه الدرجة الحادة، ولكنهما يتكاملان بعضهما مع بعض. خاصة أن بعض الوظائف (ومن بينها الوظائف التي ذكرت في نماذج الأسئلة آنفاً) تتطلب فعلاً النصفين، لأنها قد تشتمل على مجموعة وظائف ضمناً..

أما الأبحاث العلمية الجادة التي درست فسلجة الدماغ، فلم تعتمد على إجابات المستطلعة آراؤهم التي قد تكون محكومة بجواب مسبق، بل اعتمدت على دراسة نشاط كل شق بشكل مباشر، في أثناء إجراء بعض الاختبارات على المتبرعين، ودراسة أنشطة كل شق، بطريقة شعاعية وكهربائية، وتتضمن تفصيلات معقدة لا أريد أن أضجر أحداً بها (أكثر من هذا..!)..

النتيجة النهائية، وبعد حذف التداخل الحتمي بين الشقين، كان أن الشق الأيمن من الدماغ، يكون مهيمناً

أكثر في أثناء العمليات التي تتطلب الحدس، والخيال، والإبداع..

وأن الشق الأيسر من الدماغ يكون مهيمناً أكثر في أثناء العمليات التي تتطلب التحليل، والربط بين التفاصيل، وقواعد اللغة، والمنطق بشكل عام..

اليمين للخيال والإبداع..

والأيسر للمنطق والقواعد..

بقي هناك توضيح أخير: أن كل شق من الدماغ يسيطر، عضلياً، على الجهة المعاكسة من الجسم..

أي إن الشق الأيسر من الدماغ، يتحكم بالشق الأيمن من الجسم.. ومن ضمنه اليد اليمنى.. "اليمين"..

المنطق = اليمين

وهذا كله يضعنا في المربع الأول، الذي ضم تكامل المشهدين الابراهيميين... المنطق الإبراهيمي.. واليمين الابراهيمي....

لكنه مربع يفتح لنا نافذة مطلة على أفق جديد متعدد الرؤى، متعدد الأطياف..

ماذا عن الشمال؟..

لقد احتل الشمال، ذلك الموقع المضاد لليمين، فكان اليمين يعني الفوز والنجاة، وكان الشمال يعني المشأمة والخسارة المطلقة ..﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٤١-٤٢]..

وكما كان الكتاب في اليمين بشارة فوز، فإن الكتاب في الشمال دلالة على شرّ قادم لا محالة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٢٥]..

فلماذا الشمال؟..

ثنائيات عالم الواقع

في عالمنا توجد ثنائيات لا مفر من الاعتراف بها: ليست مرتبطة حتماً بـ (الين - يانغ)[(١)] الصيني، أو بالمانوية المجوسية، لأنها لا تقحم هذه الثنائيات في عالم الغيب، عالم ما قبل الخلق، بل هي ثنائية في عالم الواقع، بعض الثنائيات تكاملها ضروري لاستمرار هذا العالم؛ مثل: الليل والنهار، والذكر والأنثى، بالمفهوم الواسع الذي يضم كل المخلوقات، وهناك ثنائياتٌ الصراعُ بينها حتمي، وصراعهما حتمي أيضاً من أجل الاستمرار، مثل ثنائية السالب والموجب، أو الخير والشر، أو أتباع الرحمن وأتباع الشيطان..

وهكذا، فإن لكل "يمين" شمالها، لا بد أن يكون لها شمالها..

لكل قيمة إيجابية لها وجود حقيقي، لا بد أن يكون هناك قيمة مضادة سلباً.. لا "مطلقات" في عالمنا هذا، "المطلق" لا يسكن الأرض، بل هو فقط عند الأول والآخر والظاهر والباطن..

(١) فلسفة دينية صينية تعتمد على وجود ثنائيات متضادة تفسر العالم.

لذلك، وكما أن "اليمين" يرتبط بكل ما ذكرناه من معانٍ، وقيم..

فكان لا بد، أن يكون هناك مُناظِر - سلبي.. لليمين ومعانيه وقيمه..

فكان الشمال..

جزءاً من حقيقة الأشياء..

تقدم اليمين لا يلغي الشمال

على الرغم من ذلك، فلنتنبَّه إلى أن ذلك لا يلغي "الشمال" مطلقاً، ولا ينفي دورها، وليس هناك أبداً أي دعوة، لا في القرآن الكريم ولا في السنة، إلى بتر الشمال، وإنما هناك تقنين وضبط لاستعمالها "كرمز" لما يجب السيطرة عليه.. ولذلك فإننا نرى وجوداً إيجابياً للشمال أيضاً؛ لكن مع تقديم اليمين عليها فقط..

﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٦/٤٨]..

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ٣٤/١٥]..

إذن، فلنتنبَّه هنا إلى أن الآيتين، تتحدثان عن "وضع دنيوي" أتحدت فيه الثنائيات، لتقدما - معاً - شيئاً إيجابياً..

ولنتنبّه هنا، أن ذلك كان - دوماً - مرتبطاً بتقدم اليمين..

بتقدمها، على الشمال..

بالضبط كما نفعل في الصلاة..

هل يكون ذلك مصادفة؟..

هل يمكن أن يكون ذلك محض مصادفة..؟ هل هناك شيء في هذا العالم كله مصادفة، ليكون هذا مصادفة؟..

❖ ❖ ❖

لكن إذا كانت الميثولوجيا، كما يسميها أصدقاؤنا المتثاقفون، والأنثروبولوجيا قد وضعت الشمال- التي يتحكم فيها اليمين الدماغي- في موقع (الشرير).. فإن البيولوجيا لم تفعل ذلك.. وقد مرَّ سابقاً، أن الجزء الأيمن من الدماغ، المسؤول عملياً عن الجزء الأيسر - اليد الشمال - مسؤول عن عمليات الإبداع بصورة عامة، العمليات التي تتطلب خيالاً وحدساً وتجريداً؛ سواء كان ذلك إبداعاً فنياً أم علمياً.. سواء كان لوحة أم قطعة أدبية أم نظرية علمية جديدة..

طبعاً لا يمكن لذلك كله أن يحدث بوساطة الجزء الأيمن من الدماغ وحده، فالأمر معقد ومتداخل، وجزأا الدماغ يعملان بشكل ديالكتيكي، وليس بشكل مستقل تماماً. على الرغم من ذلك، فإن شيئاً في عملية الإبداع، بمعناها العام، يتطلب نشاطاً متقدماً للجزء الأيمن في الدماغ في أثناء ذلك، لكن؛ وما نعرفه عن الأمر لا يزال أولياً، ولا يكاد يغطي جزءاً بسيطاً من قمة الجبل الغاطس في الماء؛ على الرغم من ذلك، فإن لمحة الإبداع، ذلك البرق

الخاطف الذي قد يمر لثوان ويسمونه أحياناً الحدس، أو أشياء أخرى، يتطلب الجزء الأيمن من الدماغ خصوصاً، وتنفيذه، بشكل أو بآخر، سيتطلب حتماً الجزء الأيسر..

هل الابداع شر؟

وهذا، سيجعلنا، أو سيبدو أنه يجعلنا أمام إشكال ما..

فالابداع، لا يمكن أن ينكر دوره، أو يلغي، أو حتى يحجم، من مسيرة الحياة وصنع الحضارة..

وعلى الرغم من ذلك، فإننا نرى، وحسب هذا الاسقاط البيولوجي، على اليمين والشمال، أن الابداع سيتأخر، وسيتقلص، بحسبان أن الشمال هي رمزه، وقد قدمت اليمين عليها..

ولكن كيف، ونحن نرى أن الإسلام هو أساس الحضارة، وأساس النهضة نحو قيام هذه الحضارة..؟؟

أما كان يجب أن يكون للإبداع، وفق هذه الرؤية، مكانة أفضل وأكثر تقدماً؟..

فلنحاول مرة أخرى..!

الخروج عن القانون

يتضمن الإبداع، كسراً معيناً لقوالب معينة، إنه محاولة لتخطي الحدود والحواجز، والنظر بطريقة مختلفة، من زاوية مختلفة، ومن عدسة مختلفة.. إنه محاولة لإنتاج ما هو جديد، عبر تغيير قوانين الرؤية، أو تغيير قوانين الانتاج، أو قوانين الاستدلال..

الإبداع.. هو خروج عن قوانين ما، لمصلحة قانون آخر جديد..

❖ ❖ ❖

ولأنه يحتوي في داخله على "تمرد ما"؛ ربما تجاه الذوق السائد، أو تجاه القوانين العلمية، أو تجاه القوانين الاجتماعية السائدة، فإن هذا قد يحدث رد فعل "بالضد" من قبل المجتمع.. كما أنه يولد أيضاً نوعاً من التمرد السلوكي من المبدع تجاه قوانين المجتمع التي لا علاقة لها من قريب أو من بعيد بإبداعه.. لكنه يزاوج بين تمرده الإبداعي، وتمرده السلوكي بطريقة أو بأخرى.. بحيث أنهما يتماهيان معاً على الرغم من أن ذلك لم يكن ضرورة ابتداءً..

"صورة الفنان في شبابه.."

كرس هذا الأمر مبدعون حقيقيون، أنتجوا إبداعاً لا شك في أصالته، لكن حياتهم كانت مثالاً للتفلت من كل منظومة قيمية وأخلاقية، طبعاً كان هناك مبدعون لم يكن في حياتهم شيء كهذا، على الأقل ليس هناك فضيحة مدوية، لكن الصورة التي رسخت عن الإبداع والمبدعين، هي الصورة المتفلتة، كما لو أن التفلت هو صنو الإبداع، وساعد ذلك على الترويج للتفلت عند فئة تتمنى أن تكون مبدعة، أو تدعي أنها كذلك، لذلك نراهم يتفلتون من كل شيء، من المظاهر (في أبسط تفاصيل النظافة أحياناً) إلى الجوهر، الذي يجعل حياتهم عارية من كل التزام شخصي أو عائلي أو اجتماعي، وكل ذلك تحت شعار

الإبداع، ولأن الابداع عملية أعقد بكثير من ترهات سطحية كهذه، فهم لا ينتجون حقاً إلا سخافات، لا يراها إبداعاً إلا نقاد على شاكلتهم.. وهذا لا ينفي أبداً وجود مبدعين حقيقيين متفلتين.. لكن الصورة النمطية للمبدع المتفلت عممت هذا الأمر، وجعلتهما يتماهيان بطريقة غير مقبولة..

الإبداع من أجل حضارة

الأمر هو، على الأقل من الزاوية التي أقف عليها، من أرضية يشكل الإسلام مادتها الأساسية، ويكون القرآن البؤرة التي أرى من خلالها، أن الإبداع يجب ألا يكون مستقلاً عن نتائجه، وعن أهدافه..

لا أتحدث هنا عن نتاج مؤدلج ساقط في المباشرة والشماراتية، لأن هذا ليس "إبداعاً" أصلاً.. ولكن عن إبداع يلتحم بروح الأمة، بروح النهضة، بنسغها الصاعد، بجدلها اللازم، بكهاربها التي قد تسري في الناس العاديين لكنهم عاجزون عن فهمها..

عن إبداع ملتزم بقضية، وقضية كبرى، قضية تمس الإنسانية وهمومها ومصيرها.. قد يقول المبدعون - المتفلتون، أن تفلتهم، أو حريتهم - هو القضية، وقد يكون هذا فعلاً بالنسبة إلى بعضٍ منهم، لكن ماذا بعد؟.. ماذا بعد أن أطلقت حرية هذا المارد؟.. ماذا بعد أن استبدلت بقيوده قيود أخرى تسميها أنت حرية ويسميها غيرك تفلتاً؟.. ماذا بعد كل ذلك؟..

ليس هذا جدل الفن للفن، والفن للحياة، وليس طعناً في أن بعض أولئك قد يكون مبدعاً حقاً، لكن السؤال هو ماذا بعد؟..

هل انصهر إبداعهم في المجتمع ليقومه؟.. ليزيد نهوضه؟.. أم ليزيد من تخبطه وبهيميته وانحطاطه؟..

يمكن أن يكون الإبداع قوة فاعلة في كل ذلك.. في هذا الجانب أو ذاك، والأمر هو أن تكون لمحة الإبداع تلك، ذلك البرق الذي يضيء في رؤوس المبدعين، مؤدياً إلى "نور" حقيقي، لا أن يكون برقاً متخبطاً يؤدي إلى مزيدٍ من النار واللهيب الاجتماعيين..

ولكي يكون البرق مؤدياً إلى النور، يجب أن تكون هناك منظومة قيم أخلاقية منظومة ومنطقية تحيط به، ترعاه وتحتضنه، تحميه وتنميه..

منظومة تحيط به: كما تحيط اليد باليد..

كما تتقدم اليمين، على الشمال.. وتحيط بها..

هل هذا مصادفة؟!..

ربما الإبداع سيكون أكبر

من قال: إن ما قالوه وروجوه عن تلازم الإبداع بالتفلت هو ضروري للإبداع، لم لا يكون العكس؟.. أوسكار وايلد كان متفلتاً من كل الشروط الأخلاقية لكل الأديان والشرائع، آرثر رامبو كان كذلك، وسواهما كثيرون، والآن صاروا يعدون قد سبقوا عصرهم بحسبان أن شذوذهما قد شرع الآن وصار أمراً مقبولاً..

ولكن من قال: إن هذا لم ينتج عن ذاك؟..وإن ما هو مقبول الآن قد "قبل" اجتماعياً بسبب هذا الترويج المستمر للتفلت والذي كان من ضمنه هذا الربط مع الإبداع، من قال إن إبداع هؤلاء لن يكون أهم، وأكثر إبداعاً، وتأثيراً، وخلوداً، لو أنه كان ملتزماً بمنظومة قيمية أخلاقية واسعة؟..

من قال: إن الالتزام لا يمنح المبدع قضية أهم؟.. ويمنحه الإخلاص الأكبر؟.. والدأب الأكثر؟.. يمنحه السقف الأعلى والمحرك الأقوى لإبداعه..؟

من قال: إن الالتزام لا يكون هو الدافع للإبداع، بعيداً عن أوهام ضرورة التفلت التي تتدحرج على سلالمها المواهب، وتضيع أو تنتج إبداعاً بلا ضرورة وبلا هدف؟..

هم قتلوا القيم، ونحن قتلنا الابداع!

في الوقت نفسه علينا أن نقرّ ونعترف، أننا قد عملنا كل ما في وسعنا، لقمع الابداع، وعدّه أمراً سيئاً، أحياناً لأننا صدقنا أن الابداع هو صنو التفلت، وأحياناً لأننا خلطناه بالبدعة، وأحياناً لأننا فقط نخاف من الجديد ومن احتمالاته ونتائجه..

وهكذا، فإن الجزء الأيمن من الدماغ، الأكثر نشاطاً عند العملية الإبداعية، قد عومل تربوياً بطريقة تقمعه بدلاً من تنميته وحمايته ضمن المنظومة الأخلاقية العامة، هذا الجزء من الدماغ تم سحقه - تقريباً - تحت وطأة

التفاصيل المباشرة، بدلاً من جعله ينمو في فضاء الخيال والحدس التي ستجعله مؤهلاً أكثر للإبداع..

علينا أن نسمح لهذا الجزء بالنمو والنماء، بل أن نحثه على ذلك - وإلا فسنرى واحداً من اثنين:

إما أن نراه يضمر ويضمحل، لينتج إنساناً لا يضيف ولا يساهم في النهضة ودربها المحتوم بالإبداع..

أو أن نراه ينمو ويتضخم، ولكن دون منظومة أخلاقية تحتضنه وتستثمره.. فيكون مبدعاً، لكن كنغمة جميلة وشاردة، لا تلتحم بسيمفونية النهضة والنماء..

"اليمين على الشمال "

لا أستطيع أن أتخيل "هيئة" أو نمطاً، يجسد هذا المعنى، معنى الإبداع المنضوي تحت منظومة أخلاقية، مثل هذا الذي نفعله في الصلاة.. اليمين على الشمال..

بكل ما يعني اليمين، وبكل ما يعني الشمال، هما ملتحمان ومتكاملان ومرتبطان، في علاقة ديالكتيك ديناميكي متواصل، مثل نصفي دماغ يتكاملان معاً، ويعملان معاً.. وينتجان معاً..

لا يمكن أن أتخيل شيئاً فيزيائياً - جسمانياً يعبر عن هذا المعنى العميق، أكثر دلالة وأكثر عمقاً من هذه اليمين التي تحيط بالشمال، وتكون إحاطتها عند القلب، الذي هو الجوهر - اللب من الإنسان.. وبكل ما يعني ذلك من "مركزية" موضوعة الإبداع ونمائها وسط هذه المنظومة

التي تحيي هذا القلب - الجوهر، وتحيا به في الوقت نفسه..

ولا يمكن تخيل ربط جسماني لهذا الإبداع بالنهضة، بالنهوض، أكثر من وضع اليدين بهذا الشكل، في حالة القيام ..فالقيام المنتصب المستقيم - وحده - يجسد فعل النهوض.. أما وضع اليدين بهذا الشكل أثناء القيام فيمثل ارتباط النظام بالإبداع، والتحامهما معاً، من أجل النهوض والبناء.. القيام..

الوضع الإنساني بامتياز

هذا الوضع المنتصب القائم على رجلين، واليدان محكمتان بهذا الشكل، هو الوضع الفيزيائي الذي لا يستطيع أي مخلوق آخر أن يؤديه.. إنه الوضع الإنساني المتميز بامتياز، الذي هو جوهر القيام، ما دام يعبر ضمناً عن جوهر ما نحن هنا من أجله: الاستخلاف..

هذه الوقفة، هي ما يعبر جسدياً عن تميز النوع البشري بأسره، بتفوقه على كل المخلوقات..

معظم المخلوقات، من حولنا، تمشي على أربع، أو تزحف على أربع، أو تحبو على أربع.. قليلة هي المخلوقات التي نجت من القوائم الأربع، منها الطيور، ومنها بعض أنواع القردة، ومنها الكانغارو والبطريق...

ويقول المؤمنون بنظرية التطور: إن الإنسان قد "دفع" للانتصاب لكي يحرر يديه..

والحقيقة أنه قد خلق بهذا التقويم، المتميز عن الجميع، لأنه مكلف بما لم يكلف به سواه.. لأنه بيديه هاتين سيبني الحضارة التي كلف ببنائها.. وستمثل يدٌ جانب الأخلاق والقانون، وستمثل اليد الأخرى الإبداع المنضبط، يلتحمان معاً.. ليشيدا معاً تلك الحضارة..

تستطيع بعض المخلوقات أن تقف منتصبة، ليس بانتصاب الإنسان ولا باستقامة وقفته..

لكن ليس هناك مخلوق واحد، غير الإنسان، يستطيع أن يجمع بين هذه الوقفة المنتصبة، وهاتين اليدين المتشابكتين بعضهما مع بعض..

إنه الإنسان وحده..

وهذه هي الهيئة، التي تسمى اختصاراً: القيام..

إبليس يدخل من الفصل بين اليمين والشمال

وكأني أفهم الآن لم توعد إبليس، يوم كان ما كان، أنه سيأتينا عن أيماننا وعن شمائلنا ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧/٧]..

كأن الوعيد هنا، يشير إلى أن نقطة دخول إبليس تستغل انفصال اليمين عن الشمال، أي عندما تكون المنظومة القيمية خالية من روحية الإبداع، ويكون الإبداع متفلتاً من الضوابط..

أما عندما يلتحم الاثنان معاً فإن ذلك يشكل سداً، لا أقول: إن إبليس لن يتمكن من اختراقه..

لكنه سيكون بالتأكيد أصعب مما لو كانت اليدان منفصلتين..

❖ ❖ ❖

ومع "القيام" الذي يجسد كل تلك المعاني.. لا يمكن أن يكون هناك ما هو مناسب أن يقال أكثر من "الفاتحة"..

إذا كانت فيزياء النهوض، وطراز عمارة "القيام"، تتجسد في هذه الهيئة.. فإن "الفاتحة" هي المرادف اللغوي لذلك، إنهما الإعلان الدائم عن مكانتنا في هذه الأرض، وإصرارنا على اتخاذ موقف إيجابي، مع كل شيء، نستمده منه عز وجل، من أجل إنجاز ما كلفنا به، من أجل "قيام" عالم جديد ممكن..

الفصل الثاني

الركوع: قلب الصلاة

الركوع هو الهيئة الثانية، من هيئات الصلاة..

إنه الطراز الثاني الذي نتشكل عبره من خلال الصلاة، ومع أنه لا يأخذ مكانة الأولوية مثل (القيام)، ولا مرتبة السجود المهمة، إلا أنه يأخذ مركزاً في الوسط، بكل ما يعني الوسط من أهمية..

ويتوازى هذا الموقع الوسطي في القلب من الهيئات، مع حقيقة أن كل "وحدة بناء" من وحدات الصلاة، قد سميت "ركعة" على هذه الهيئة: الركوع.. ويتوازى أيضاً، مع حقيقة أن الركوع، لمن جاء متأخراً في الصلاة، يجزئ عن القيام، ويحسب الالتحاق في الركوع، ركعةً كاملة..

وهذا كله، يمنح الركوع.. تمايزاً لا بد من فهمه، في إطار العلاقة بين شكل الركوع، والمعنى المحتوى في داخله..

الراس أولاً..

الركوع لغةً هو خفض الرأس..

وهيئة الركوع تتضمن ذلك وتتضمن التأكيد عليه، إنه خفض للرأس إلى درجة الانحناء بهذا الشكل، إنه بالضبط: الخفض الأقصى - الممكن - للرأس..

لكن لماذا؟..

لماذا الرأس تحديداً؟..

لماذا هذه الهيئة - التي أخذت هذا الموقع المركزي، تركز بالذات على الرأس؟..

وتتخذ من خفضه - كل هذا الخفض - شكلاً تعبر فيه عن المحتوى العميق لها..

لماذا الرأس؟..

الركوع (حصرياً) للإنسان..

نلاحظ هنا، في الفرق بين الركوع والسجود، أن لفظ السجود جاءَ لكل ما خلقه الله عز وجل.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٩].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٣/١٥].

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: ٥٥/٦].

كل ما خلق الله: النجم، والشجر، والكواكب، والملائكة. وناهيك عن القول: البشر..

أما الركوع، فلم يأت تحديداً إلا مع البشر..

في المرّات الـ (١٣) التي جاءت فيها مشتقات الفعل ركع، كلها كانت تدور حول الإنسان، فرداً أو جماعة..

لكن ليس بقية المخلوقات..

لا نجم، ولا شجر، ولا عبارة واسعة تضم كل ما خلق الله مثل: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.. ولا حتى الملائكة..

البشر حصرياً، يمكنهم الركوع..

بينما الكون كله، وكل ما فيه، بما فيه من بشر كذلك، يمكن له السجود.. لكن الركوع للبشر فقط..

❖ ❖ ❖

هل يمكن أن يكون هذا بلا معنى؟..

هل يمكن إلا أن يكون مليئاً بالمعاني؟.. كما كل شيء مع الكتاب الخاتم.. وهل يمكن أن يكون هذا المعنى منفصلاً عن معنى الركوع الأصلي..

خفض الرأس؟..

ما وراء الرأس

ليس كل ما في السماوات وما في الأرض، لديه رأس.. وهذا بالتأكيد، يجعل من الركوع مستبعداً عما ليس له رأس..

لكن الدواب لها رؤوس.. وهي من مخلوقات الله عز وجل، إنها مشمولة ضمن الطيف الواسع من ﴿وَمَا فِي

﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.. وهي، بانقيادها للسنن والقوانين الإلهية، إنما تمارس سجودها له عز وجل..

لكن لا ركوع بالنسبة إلى الدواب، رغم الرؤوس التي تمتلكها.. وحده الإنسان، يتشرف بالركوع، لله عز وجل..

إذن ليس الأمر في "الرأس" تحديداً..

بل هو في "ما وراء" هذا الرأس..

في شيء يستخدم العدة الموجودة داخل هذا الرأس، يكون ما هو أعمق من أن يحدد بالرأس..

إنه "العقل"، الذي هو حتماً ليس الدماغ بالمعنى المباشر، لكنه يستخدم وظائف الدماغ وإمكاناته ليكون ما هو أكبر من مجرد عضو فيزيائي..

إنه العقل، عقل الإنسان، أهم ما فيه، وأكثر ما يميزه من غيره من المخلوقات، يعلن، عبر الركوع، أنه خاضع لله..

حدود العقل: حكاية الركوع

هذا العقل لا يمكنه أن يركع إلا لله، لأنه ببساطة يمكنه أن يسبر أغوار الكون كله، والمخلوقات كلها، يفتح أسرارها كلها، ويغوص في أعماقها، ينقب في مغاورها وفي مجاهلها.. كل كتاب مغلق يمكن أن يفتح بواسطة هذا العقل.. العالم كله حقل مفتوح، أو محتمل، لهذا العقل.. لا حدَّ لهذا العقل، إلا حدّ واحد، يقف عنده: هنا لا أستطيع أن أعمل، هنا لا أستطيع أن أفتح ما هو مغلق، هنا لا مجال لي، ولا أدوات..

لا حدود هناك أمام العقل الإنساني، إلا حدّ واحد، لا يستطيع العقل اقتحامه إلا متوهماً، ولا يستطيع فتح أسراره ولو تسللاً، إنه ذلك الغيب الإلهي الذي لا مجال لمعرفته إلا عبر ما صدر عن هذا الغيب..

كل الكون يتحدى العقل الإنساني، والعقل الإنساني، يرد التحدي بالمثل، الكون يتحدى بكون مغاليقه تستفز العقل الإنساني، والعقل الإنساني يرد التحدي بفتح هذه المغاليق..

كل شيء إلا واحد..

هو الواحد.. الله..

❖ ❖ ❖

ولهذا فإن "الركوع" يختص بالإنسان، إنه صاحب العقل، والعقل هو ما ميّزه وأهّله ليكون خليفة الله على الأرض..

فعالية هذا العقل، وتميزه، ستكون عندما توجه إلى فتح مغاليق الكون.. لكن هناك حدّ واحد عليه أن يخضع أمامه، عليه أن يقرّ أنه سيكون عاجزاً أمامه..

سيحني (الرأس) تجاهه، علامة الخضوع والاستسلام، استسلام من لا يودّ أن تنفد طاقته في مهمة لم يصمم أصلاً على الدخول فيها، بل يركز في المهمة - الأصل؛ مهمة الاستخلاف في الكون..

هذا هو المعنى، وراء "هيئة الركوع"..

لكن ليس هذا كل ما هناك..

ليس فقط خضوع العقل واستسلامه أمام خالقه الذي صممه ليكون التقاطه للموجات مقصوراً على الكون، وليس على ما وراءه..

الأمر أيضاً أكثر من هذا..

إنه أن يكون هذا العقل، في خدمة خالقه.. أن يكون مسخراً في خدمة المشروع الذي كلفه به الله..

الاستخلاف..

الركوع ممهداً للسجود

من أجل ذلك، سبق الركوع السجود..

ذلك أن السجود هو خضوع "كلي" لله، إنه كناية عن خضوع بكامل الجسد والروح لله عز وجل..

وهذا الخضوع إسلامياً، وقرآنياً، يجب أن يمر أولاً عبر العقل، عبر إعلان هذا العقل خضوعه لخالقه، والخضوع العقلي يتطلب رفضاً لأي عقيدة أو إيديولوجية أو نمط حياة مخالفة أو متناقضة مع ما أمر الله به..

عبر خضوع حقيقي للعقل، ممثلاً في ركوع حقيقي، يمكن الوصول إلى ذلك الخضوع الشامل، الممثل في السجود..

لذلك كان لا بد أن يسبق الركوعُ السجودَ..

العقل أولاً..

ثم سائر أنحاء الجسد..و غير الجسد.

التراتب القرآني للركوع والسجود

لكن الركوع لا يسبق السجود في هيئات الصلاة فقط..

فذلك حدث في كل مرّة اجتمعا فيها قرآنياً ..﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧/٢٢].

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥/٢].

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢/٩].

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦/٢٢]..

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩/٤٨]..

دوماً الركوع يسبق السجود..

دوماً العقل هو بوابة الخضوع الكامل..

دوماً العقل، بإعلانه الانضمام غير المشروط للمشروع الإلهي هو الباب الذي يمكن فيه للإنسان، كل إنسان، أن يكون فاعلاً في هذا المشروع..

الاستثناء المضيء للقاعدة المضيئة

هناك استثناء واحد لهذا التتابع..

هناك مرّة واحدة، كان السجود سابقاً للركوع..

وهو استثناء يثبت القاعدة بدلاً من أن ينقضها..

فقد كانت هناك أمور ستجعل العقل عاجزاً حتى عن الانضمام.. ولذلك يسبق السجود هنا الركوع..

إنها أمور استثنائية على العموم، ولن تحدث لكم أو لي أو لأي شخص نعرفه..

إنها معجزة استثنائية، لن تتكرر..

كان ذلك ما حدث لسيدتنا مريم.. عندما تجاوز ما حدث لها بمشيئة الله كل قوانين العقل والسنن الإلهية التي بنى الله الكون عليها..

هنا كان لا بد للسجود أن يأتي أولاً..

ومن ثم الركوع..

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/٤٣]..

وما دام ما حدث لمريم لن يحدث مجدداً، فإنه الاستثناء الذي يثبت القاعدة..

إن الركوع هو الممهد الحتمي للسجود..

"سبحان ربي العظيم"..

ويرتبط الركوع، ارتباطاً لا فكاك منه، بتلك التسبيحة التي تعودنا أن نقولها دون كبير انتباه.. "سبحان ربي العظيم"..

نرددها (٣) مرّات، وقد تعودناها حتى صار الأمر

روتينياً غير مثمر.. لكن لا شيء قد جاء بالمصادفة، دون معنى، في هذا الدين "العظيم".. ولا في شعائره..

ولا في أهم شعائره على الإطلاق..

لا شيء قد جاء هكذا، دون سبب، وهذه التسبيحة للرب العظيم، ما كان لها أن تستبدل بها تسبيحة لاسم آخر من أسمائه عز وجل: ما كان لها أن تكون للرحمن الرحيم، أو للقاهر القوي، أو للتواب الغفور..

ليس مع الركوع خصوصاً.. ليس مع تلك الهيئة التي تعني خضوع العقل واستسلامه وانضمامه للمشروع الإلهي..

هنا، ما كان يمكن لاسم من أسمائه، عز وجل وتعالى، أن يحلّ محلّ "العظيم"..

هنا، لا يتسق مع هذا الطراز المعماري، الذي نتشكل بحسبه، إلا هذا الاسم "العظيم"..

"العظيم"

اختير هذا الاسم تحديداً، لأنه يعبر بالذات عن السبب الذي نخفض رؤوسنا من أجله، الذي نخضع عقولنا من أجله..

يعبر الاسم "العظيم" عن المعنى خلف هيئة الركوع، في لفظة واحدة، صحيح أننا الآن استخدمنا هذه اللفظة في غير موضعها، بل وابتذلناها في الاستخدام، حتى صرنا نقولها عن كل ما هو عادي، أو ما هو فوق العادي بقليل:.. إنه "عظيم"، حتى فقدت الكلمة تأثيرها ومعناها الحقيقيين..

لكن بعيداً عن استخدامنا المفرط، فإن لفظ "العظيم" له معنى ينسجم مع عمق هيئة الركوع، وينسجم مع ما قاله أصدق من قال: "أما في الركوع فعظموا فيه الرب"..

إنها تعني ببساطة، أنه فوق التصور، فوق حدود العقل، فوق إمكانات الخيال الكامنة في هذا العقل البشري، الذي يمكنه أن يحتوي الكون الهائل المتمدد الذي لا حدود له، ويمكنه أن يضع ذلك في معادلات وقوانين، يمكنه أن يمضي في حدود إبداعه إلى ما لا حدود له، يمكنه أن يبتكر، وأن يخترع صوراً وأشكالاً ما خطرت على عقل أحد، لكنه سيظل عاجزاً أمام الله، الذي لا يمكن لعقل أن يفهم كنهه أو ماهيته، أي محاولة من هذا العقل لاقتحام حجب الغيب لن تكون أسعد حظاً من محاولات الإنسان وضع جناحين من الريش على يديه والتحليق بهما، أو محاولة استخدام مركب شراعي للتحليق في الفضاء..

إنه الشيء الذي سيقف العقل عاجزاً أمامه، لأنه لم يصمم لاختراقه بالذات..

هذا هو "العظيم" بالذات، إنه أعظم من أن يحاط بتصور أعظم من أن يحدّ بخيال، أعظم من أن يكون ضمن إطار..

ليس هذا مع كل أسمائه عز وجل.. فمع رحمته، عز وجل، يستطيع العقل أن يأخذ فكرة وتصوراً ما، مع حكمته وعدله، مع قوته وقدرته، مع مغفرته وهيمنته وقهره.. كلها يمكن للعقل أن يمتلك تصوراً، قاصراً بطبيعته، ولكنه (تصورٌ ما)..

إنه العظيم في كل شيء، في رحمته وقدرته ومقدرته ومغفرته في خلقه.. لكنه العظيم أيضاً في كل ما "هو هو".. وهذا بالذات هو معنى "العظيم"، وهذا بالذات هو الذي على العقل الإنساني أن يقرّ مرغماً أو طائعاً، بعجزِهِ أمامه..

العظيم، هذا هو، هذا الذي يشير إليه.. هذا هو المعنى الذي أشار إليه، هذا هو المعنى الذي أشار إليه العرب في لسانهم: "الذي جاوز قدره، وجل عن حدود العقول حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته"[1].

وهذا هو المعنى، بلا دخول في متاهات التفاصيل غير المعروفة في افتراضات غيب الغيب..

لا لاهوت هنا، ولا علم كلام لا طائل من ورائه..

بل هنا تلك الانحناءة "العقلانية" التي ستوفر على العقل طاقته، وتوجهه نحو ما يجب أن يسبره ويفك ألغازه..

استدراك وإضاءة

هل كان استخدام كلمة عظيم قاصراً على هذا المعنى في القرآن الكريم إذن؟..

لا، لم يكن اللفظ مختصاً بالله عز وجل، لكنه كان دوماً يشير إلى معنى خارج الحد المألوف، والمتصور..

العذاب يمكن أن يكون عظيماً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/٧]..

(١) لسان العرب: مادة عظُم.

الكرب كذلك ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٧٦]..

الفوز ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ٥/١١٩]..

الحظ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٤١/٣٥]..

بالإضافة إلى ألفاظ كثيرة وصفت بالعظمة مثل الخزي، الكيد، ناهيك عن العرش، القرآن.. اللذين وصفا أيضاً بالعظيم..

ما وجه التشابه هنا، بين اللفظين؟..

التشابه هو أن ألفاظ "العظيم" كلها موجهة إلى (بنية) يراد وصفها، واقترانها بالعظمة، سواء كانت سلبية، مثل الخزي والعذاب، أم إيجابية مثل الفوز والحظ، فإن ذلك يشير إلى أن بنية هذا (الشيء)، مختلفة عن الحد التقليدي المعتاد، مختلفة عن المألوف من العذاب أو الخزي أو الحظ.. وكلها في الوقت نفسه، غير خاضعة لمقياس واضح، لا يمكن أن يقاس العذاب أو الخزي أو الحظ على مقياس أو مكيال معينين، إنها أمور يمكن أن (تحس) أو (تشعر)، لكنها غير معيارية بكل الأحوال..

أما الاختلاف، مع لفظ العظيم عندما يكون اسماً لله تعالى، فهو تلك العظمة المطلقة، حيث إننا لا نستطيع أصلاً الاقتراب من فهم بنيته، أو فهم ما هو (حقاً) إلا عبر ما أخبر به عن نفسه..

نستطيع أن نكوّن فكرة عن العذاب أو الخزي، فيكون العذاب أو الخزي العظيم هو المزيد من هذا أضعافاً مضاعفة.. وكذلك الفوز أو الحظ..

أما مع الله، فحدود العقل مغلقة، وقدراته عاجزة.. لا شيء سوى الاستسلام الشجاع.. وتلك الانحناءة التي اسمها الركوع..

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ

وهذه التسبيحة التي نرددها عند الركوع، "سبحان ربي العظيم" هي امتثال إنساني، لأمر إلهي بهذا التسبيح، جاء ثلاث مرات في القرآن الكريم..

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة ٥٦/٧٤، ٩٦، الحاقة ٦٩/٥٢]..

وبالمناسبة، فإن التسبيح لله عز وجل، لم يرتبط إلا باسمين من أسمائه عز وجل، كان هناك التسبيح لله، والتسبيح بحمده، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، لكن، مع الأسماء لم يرتبط التسبيح إلا باسمين حصرياً.. وهما العظيم والأعلى.. اللذان نذكرهما في الركوع، والسجود تباعاً..

ثلاثة سياقات تنتهي بتسبيحة واحدة

ثلاثة سياقات قرآنية، تنتهي بهذا الأمر بالتسبيح..

فما الذي في هذه السياقات؟.. هل فيها مشترك يؤدي إلى التسبيح للعظيم، لاسم العظيم تحديداً؟.. هل تتداخل

هذه السياقات الثلاثة؟.. هل تلتحم؟.. هل تسوقنا في النهاية إلى نتيجة واحدة؟..

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧)
أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ
قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ
وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ
فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ
نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ
(٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى
تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ
نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى
تُورُونَ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ (٧٢) نَحْنُ
جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ
(٧٤)﴾ [الواقعة: ٥٦/٥٦-٧٤]..

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ
تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ
(٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
(٨٠) أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ
تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ
(٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَآ إِن
كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٨٧) فَأَمَّآ إِن
كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ
إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ
(٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ

﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٧٥-٩٦]..

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٣٨-٥٢].

صورة كبيرة واحدة، بزوايا تزداد انفراجاً

ثلاثة سياقات، لن تبدو متشابهة كثيراً في الوهلة الأولى، لكن عندما نحاول أن ننظر إليها من زاوية أكثر انفراجاً، سنرى أنها تملك قاسماً مشتركاً أساسياً، وهو قاسم الزاوية المنفرجة جداً، التي تغرسها هذه الآيات، الزاوية التي تتعامل مع "الصورة الكبيرة"، مع السياق ككل، وليس مع التفاصيل الصغيرة المتناثرة هنا وهنا، السياقات الثلاثة تلفت انتباهنا، بل تعيد تشكيل رؤيتنا، إلى ألاّ ننظر أولاً إلا إلى "الصورة الكبيرة"؛ ففي الصورة الكبيرة تعود التفاصيل المغبشة أكثر وضوحاً، ويمكن فهم التفاصيل غير المفهومة ضمن السياق الأكبر، ضمن الصورة الأكبر..

كل السياقات الثلاثة المنتهية بالأمر بالتسبيح، تشير إلى هذا.. كيف؟..

السياق الأول؛ ينبهنا إلى الخلق الأول، فيأخذنا من الزاوية الصغيرة التي نرى الأمور من خلالها، إلى زاوية أكبر، زاوية أصل الخلق، النشأة الأولى سواء كان هذا هو أول خلق خُلِقَ على الإطلاق، النشأة الأولى أم خلقنا نحن، تشير إلينا الآيات إلى زيادة سعة الزاوية التي نرى الخلق من خلالها.. الزاوية نفسها ستطبقها الآيات على الزرع، الماء، النار.. وكلها كانت أساسات في استمرار الحياة الإنسانية، واستمرار الحضارة الإنسانية، وكلها ستكون مختلفة لو نظرنا إليها من زاوية (الصورة الأكبر)؛ من زاوية النشأة الأولى..

السياق الثاني؛ يبدأ بمواقع النجوم، وهذا يجعل من زاوية الرؤية أكبر بكثير، إنها تتجه إلى رؤية الكون ككل متداخل، أي إنها تبحث هنا عن صورة أكبر، وسياق أكثر سعة وشمولية، ولذلك فإن الأمر هنا يتعدى الموت، وقد كان الموت في السياق الأول موجوداً بمواجهة الحياة، لكن الزاوية هنا أكبر، أكثر انفراجاً، لذلك يكون الموت محطة لما يليه: الآخرة، ويكون الحلقوم معبراً نحو المشهد الأخير الذي يكمل الصورة الأكبر ويختمها، ويجعلها الصورة النهائية..

السياق الثالث؛ ينبهنا إلى أن الصورة تشمل ما نبصره، وما لا نبصره، ولكن ما لا نبصره لا يمكن أن يحذف لمجرد أننا لا نبصره، إنه موجود، كل ما في الأمر أن أعيننا لا تلتقطه، أو أن عقولنا لم تركب لكي تفك مغاليقه، لكن رؤيتنا للأمر بشكل كامل، وتعاملنا مع

التفاصيل على أنها جزء من الصورة الأكبر، سيجعلنا نتجاوز عدم فهمنا، أو عدم إبصارنا، لأن الصورة الأكبر هي ما يهم..

حق اليقين!

ولماذا ارتبطت هذه السياقات، المتداخل بعضها مع بعض، بالتسبيح للعظيم بالذات؟..

الجواب عن هذا، يرتبط بارتباط آخر، ربط التسبيح للعظيم، في سياقين من هذه السياقات، مع حق اليقين ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٥١-٥٢] ..﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٩٥-٩٦]..

واليقين، هو الإيمان وقد أزيح عنه كل شكّ، وهو مرحلة لا تنفي وجود شك سابق، لكنه شك يمرّ بمراحل للتمحيص إلى أن ينتهي إلى الزوال، ولا شيء يزيل الشك أكثر من الإيمان بالصورة الكبيرة، بالسياق الكلي، التفكير الذي يؤمن بالتفاصيل، لابد أن يصطدم بما لا يمكن فهمه من تفاصيل صغيرة، لم هذا الأمر هنا؟ ما الحكمة من هذا التشريع هناك؟ لِمَ لا نستطيع أن نفهم كنه الله.. إلى غيرذلك من هذه الأمور..

لكن الرؤية الأوسع، ستزيح أهمية عدم الفهم، ستبدو التفاصيل الصغيرة غير مهمة، وما دمت تؤمن بكلية الأمر، فإن تفاصيله لن تعود أكثر من تفاصيل..

واليقين بالصورة الأكبر، بالسياق الكلي، هو جوهر التسبيح باسم العظيم..

لأنك هنا، تقف لتقر بتنزيهك للعظيم، إن عقلك عاجزٌ عن إدراكه، لكنك موقن به لأنك تؤمن بالصورة ككل، صورة تبصر فيها الخلق والخليقة، وقوانين الخلق والخليقة، وتلك السنن التي بني عليها هذا الكون، ولا تبصر فيها من وضع هذا كله، كما أنك لن ترى من الجبل الغاطس في الجليد غير قمته المرئية، لكن هذا لا يعني أبداً أنك لن تؤمن بأن الجبل - تحت القمة - موجود فعلاً..

نعم، لن ترى الله، ولن تفهم أبداً كنهه، عقلك ببساطة عاجز عن ذلك، ولكن هذا هو بالذات السبب في أن تحني رأسك، عقلك له.. هذا هو بالذات، سبب يقينك.. الذي لن يأتي إلا من هذا..

ولهذا، ها أنت ذا تركع..

وتسبّح لهذا الاسم بالذات: العظيم..

تنزهه، عن أن يتمكن عقلك، أو أي عقل، على احتوائه، أو إدراكه..

باطل اليقين

فلنتنبه هنا، أن تلك التسبيحة، لم ترتبط بأي يقين، بل بحق اليقين حصراً..

وهل هناك غير حق اليقين؟.. هل هناك يقين باطل؟..

نعم، هناك باطل يؤمن به الناس، ويلبس عقيدة أو مذهباً أو إيديولوجية، أو نمط حياة، ويؤمنون به دون أن يداخل إيمانهم هذا شك، هناك باطل يؤمن به بعض الناس، فيقدمون حياتهم من أجل قضيته وترويجه وبنائه وإقامته.. وهذا قد يفرض احتراماً لهم كأصحاب مبدأ، لكن لا يغير شيئاً من كون مبدئهم باطلاً..

ولكن هناك يقين حق، هو هذا اليقين الذي يجعلك تحني رأسك للعظيم..

هذا اليقين - الحق، هو الناتج عن منظومة شاملة، منظومة لا تقف عند التفصيل..

بل عند الصورة الكاملة أولاً..

❖ ❖ ❖

وكل هذا، في الركوع..

وفي التسبيحة التي في ثناياه... التي تقول: إن عقلك ينزّه العظيم، عن أن يحتويه أو يفهمه عقل..

الفصل الثالث

هناك، عند السجود..

السجود هو الهيئة الثالثة التي تشكل مثلث هيئات الصلاة، بعد القيام والركوع، وقد مرَّ أنه يعني مظهر الخضوع الكامل الذي يقدمه الإنسان لخالقه، وأن الركوع، الذي يعني خضوع العقل لهذا الخالق، هو مرحلة تمهيدية للسجود، للخضوع الكامل، حيث إن الخضوع الحقيقي، أو الخضوع المطلوب، لابد أن يمر بمصفاة العقل أولاً، وإلا كان خضوعاً شكلياً، خاضعاً لظرف عابر واضطراري، ومحتوياً على نية تمرد، أو لا مبالاة، لاحقة مرهونة بزوال هذا الظرف..

السجود إذن، لا يمكن عزله عن الركوع، بل لا يمكن عزل هيئة من هيئات الصلاة عن الأخرى، بل الصلاة كلها وحدة واحدة، بهيئات متداخلة ومتلاحمة، مرتبطة الواحدة بالأخرى، لتؤدي ملحمة المعاني التي يتشكل ويتربى الإنسان من خلالها وعبرها..

السجود مرحلة متقدمة من هذه الملحمة، إنه الحركة الثالثة من سيمفونية المعاني، التي يتناغم فيها الإنسان مع

ما خلق من أجله، ويتدرب من خلالها ليكون ما خلق من أجله..

الخضوع الكلي

والسجود لغة، انحناء الرأس، مثل الركوع، ولكنه انحناء أكبر، لدرجة وضع جبهة هذا الرأس على الأرض.. "الجبهة على الأرض"..

هذه هي علامته الأساسية، وهذه هي الوضعية التي "تحتم" باقي تفاصيل السجود، فلكي تضع جبهتك على جبهة الأرض، يجب أن تستند بيديك، وركبتيك، وقدميك.. كما في هيئة السجود..

وهذا كله سيبدأ من جديد، بالرأس، بأعمق المعاني التي يمثلها، ليشمل بعدها سائر أعضاء الجسد..

بكل ما يمثل ذلك من معانٍ، من أولوية للعقل، في عملية الخضوع المشرق لله عز وجل..

سجود الارادة

نحتاج أن نعود إلى الجذر التأسيسي للسجود، ونحن نعلم يقيناً، عبر ما أخبرنا به القرآن الكريم، أن كل ما في السماوات والأرض يسجد لله، طوعاً أو كرهاً، وذلك في عملية خضوع كونية شاملة للسنن والقوانين التي وضعها - عز وجل - وبنى الكون على أساسها، أو على أساس خضوع كوني لما قد يبدو أنه خروج عن هذه السنن، أو اضطراب

فيها، وقد يكون في حقيقته سُنّة أخرى، من سنن الله، هيمنت على سنة أخرى..

طوعاً أو كرهاً إذن، بلا إرادة، بلا خيار، يسجد الكون كله لله عز وجل..

أما الإنسان، فالأمر معه مختلف..

ذلك أن سجوده مرتهن بواحدة من أهم ما كرّمه الله به: إرادته.. وإرادته هي مفتاح مسؤوليته عن أعماله، ومن ثمّ ثوابه أو عقابه.. لذلك فإن سجوده "الأرضي" هو طوعي في حقيقته، أي سجود يحدث (كرهاً) سيكون مجرد مظهر سجود خال من السجود الذي هو الخضوع الكامل، عقلاً وعواطفَ وانتماءً ونمط حياة..

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٦٨/٤٢-٤٣]..

وهو مرتبط بالإرادة الإنسانية بشكل مباشر، لا برتابة الحركات وتكرارها، عندما يكون بمعناه الشامل العميق..

يقال لك: اسجد..

والأمر طوعي.. تستطيع أن تمتنع إن شئت ألا تسجد، هيئة ومعنى.. أنت من يقرر ذلك..

لكنك عندما تقرر، عليك أن تتحمل نتائج اختياراتك وقراراتك..

ولو لاحقاً.. بأجل آتٍ، مهما بدا بعيداً..

السجود الأول

لكن أول أمر للسجود عرفنا به، وأخبرنا به القرآن الكريم، كان مختلفاً عن مفهوم السجود، كان مختلفاً من عدة نواحٍ، من ضمنها أن المسجود له كان في هذه المرّة الأولى، ولهذه المرة فقط وبشكل استثنائي، ليس الله سبحانه وتعالى، وأن السجود هنا لم يكن يحتوي في معانيه على معنى التعبد والخضوع الذي نعرفه في السجود بمعناه اللاحق.. المأمورون بالسجود كانوا أشرف خلق الله وأهمهم حتى لحظتها، وأمر السجود هذا هو النقطة التي ستغير ذلك، إذ إنها ستجعل هناك مكانة أعلى ممكنة ومحتملة، للمسجود له، يمكنه أن يتبوأها، ويمكنه أن يتخلى عنها، بحسب إرادته وبحسب قراره.. لكن "أشرف الخلق" لم يعد موقعاً حصرياً بالملائكة..

أما السجود فكان سجود التكريم، سجود التسخير، سجود الإقرار بأنه يملك الإمكانات الأكثر فاعلية..

أما المسجود له، فقد كان آدم، ولا أستطيع هنا إلا أن أتخيله منتصباً قائماً، ويمينه على شماله.. بكل المعاني الكامنة في هذا الموقف..

سجود لاحق...

كان ذلك هو الأمر الأول بالسجود، أول فعل أمر بالسجود عرفنا بوجوده، وتفاصيل ما حدث بعدها، من عصيان إبليس واستكباره، والقسم الذي أدّاه، تشكل جزءاً

كبيراً من حيثيات حياتنا الأرضية اليوم، سواء فسرناها بهذا الشكل، أو بشكل آخر..

لكن الذي يلفت النظر في المشهد الذي قدّمه لنا الخطاب القرآني، أن الأمر لا ينتهي بسجود آدم للخالق عز وجل.. مع أنه عزَّ وجلَّ أسجد الملائكة له، ولو من باب العرفان والامتنان لهذه المكانة..

كما لو أن الأمر، أن السجود "هناك" ليس هو المحكّ، بل الامتحان هو هنا "في الأرض"..

كما لو أن السجود الحقيقي لا يكون إلا في الأرض؛ موضع الامتحان، موضع الاستخلاف.. موضع ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/٣٠]..

قطبا التفاعل: آدم والعالم

آدم لن يسجد إلا في الأرض، إذن؟..

ألا يذكر ذلك بتعريف السجود: وضع الجبهة على الأرض؟..

هل كان يمكن لآدم أن يسجد إلا في الأرض، عندما يضع جبهته عليها، يضع (رأسه)، ومن ثم كله، على موضع التفاعل الذي استخلف فيه، كما لو أن هذا السجود تعبيرٌ فيزيائي، عن التحام الإنسان بمهمته التي كلفه الله بها، كما لو أن هذا السجود، هو تعبير جسدي... عن ذلك التفاعل المطلوب بين الإنسان والأرض التي هي العالم بأسره، وسيغيرهما هذا التفاعل معاً: الإنسان، ليصير إنساناً أكمل وأفضل.. والعالم ليصير عالماً أفضل.. وأكثر عدالة..

إنها معادلة الاستخلاف، تتمثل في رمز جسماني: جبهة الإنسان، ومن ثم جسمه كله، بالتتابع، تلتحم بالأرض.. لتعيد بناءها.. لتصنع عالماً أفضل..

الأرض، وجبهة الإنسان، يلتحمان في جبهة واحدة، كما يلتحم قطبا التفاعل، كما يلج المكبس المولد الكهربائي في الأسلاك الميتة فيولد الحياة والضوء..

لم يكن ذلك السجود ممكناً هناك..

لكنه يكون كامناً، ممكناً هنا.. على جبهة الأرض..

جبهة الإنسان، على جبهة الأرض، وذلك التفاعل الخلاق المبدع.. الذي هو جوهر السجود..

❖ ❖ ❖

وهذا التفاعل الخلاق المبدع هو مجرد اسم آخر للخضوع له عز وجل، لكن هذا الخضوع، يخضع أولاً للحقيقة الأولى التي كلفنا بها: الاستخلاف، وتصبح كل أوامر الله ومنهياته منضوية تحت حقيقة هذا التكليف الأول، فتتشع أكثر، وتتوهج أكثر، وتزداد فاعلية وفعالية..

أبى إبليس السجود لآدم.. كان هذا هو امتحانه..

أما امتحاننا، فهو السجود في الأرض..

بأقصى معاني السجود وأعمقها..

❖ ❖ ❖

ولكن هل كان على هذا التفاعل الخلّاق المبدع بين الانسان والأرض، الذي هو جوهر الاستخلاف، أن يكون

بهذه الهيئة التي تتطلب النزول إلى الأرض، بهذا الشكل؟ أما كان يمكن أن يكون هناك هيئة أخرى؟..

ببساطة لا. لا يمكن؛ لأن هذه هي الهيئة الوحيدة التي ستحافظ على الخيط الرفيع اللازم لكي يتوازن الإنسان بين سيطرته على الأرض وهيمنته عليها، وبين خضوعه لله عز وجل، الخالق الذي كلفه أصلاً بأن يكون خليفته في الأرض ..دون هذه الهيئة، ومعانيها العميقة، يمكن للإنسان أن يتمادى، وهو يرى إمكاناته وقدراته وتمكنه من الأرض..

يمكنه أن ينسى أنه مكلف، وأن تخويله مقيد، وأن صلاحياته ليست مطلقة..

لكنه في هذه الهيئة، هو يتوازن على ذلك الخيط: إنه يمسك بتلابيب الأرض، وفي الوقت نفسه هو خاضع للخالق عز وجل..

بين السجدتين..

بين سجود الملائكة هناك، وسجود الإنسان هنا، علاقة متواصلة، لم تنتهِ حقاً.. فالملائكة سجدت بناء على الأمر الإلهي، الذي جعل هذا السجود "مراسيمَ تنصيب" تكريمية للإنسان وهو يتبوأ مكانته التي أعدّها الله له، وأعدّه لها: الخليفة في الأرض..

لا شك أن النوع الإنساني لم يلتزم بتلك المكانة غالباً، وأن تاريخه للأسف هو تاريخ الانحياز إلى إبليس، عبر إثبات أن الإنسان لم يستحق تلك المكانة.. لكن هذا لم يكن قط حتماً مقضياً على الإنسان، وإنما كان خياراً

اختاره بملء إرادته، وعليه أن يتحمل نتائجه، أو أن يصححه..

سجدت لي الكواكب يا أبي..

وهذا السجود، سجود الملائكة، مع أنه لم يذكر إلا في القرآن الكريم حصراً، متميزاً عن كل ما سبق من الكتب السماوية، إلا أنه كان موجوداً بشكل ما، بطريقة ما في الوعي الإنساني، وإن لم يكن بشكل دقيق.. ربما لم يع أن الملائكة سجدت له، إلا أنه وعى دوماً أنه "السيد" في هذا العالم.. وأنه حتى الكواكب يمكن أن تسجد له..

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٤]..

تلك الرؤيا كانت أكثر من مجرد منام، كانت تحتوي في داخلها على ذلك النزوع الإنساني إلى **تحقيق ذاته، تحقيق ما خلق من أجله**.. أن يكون السيّد في هذا العالم..

قصة سيدنا يوسف، تحكي لنا المسافة ما بين هذه الرؤيا وتحويلها إلى واقع معاش..

وعندما يصل يوسف إلى ذلك، موقع "التمكين في الأرض" فإنه يحقق تلك الرؤيا.. ينجزها على الأرض..

فلنتنبّه إلى أن التمكين في الأرض الذي حققه يوسف، لم يكن ذلك المنصب المهم الذي تبوأه لاحقاً فحسب.. كان ذلك مرحلة متقدمة من مراحل التمكين، التمكين الذي ابتدأ عند يوسف من نقطة العلم فقط، وكان لا يزال

وقتها عبداً قد بيع واشتري بثمن بخس، لكنه امتلك التمكين في الأرض عندها أيضاً ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٢/٢١]..

كانت تلك هي الآية الأولى التي تحدثت عن تمكين يوسف في الأرض، فلنتنبّه هنا: الأرض كلها! وكانت آية التمكين هي العلم الذي يمكنه أن يفهم بشكل أفضل من أجل إعادة بنائه بشكل أفضل..

ثم جاء التمكين في الأرض مرة ثانية، كمرحلة لاحقة وتالية، وكنتيجة لأخذ التمكين الأول إلى مداه الطبيعي..

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ١٢/٥٤-٥٦]..

الرحلة من ذلك البئر، إلى المنصب المهم حفيظاً على خزائن الأرض، هي الرحلة ذاتها بالتوازي، من البداوة إلى الحضارة، من أن يكون يوسف وأهله مجرد "بدو" على هامش الحضارة والتاريخ، إلى أن يكونوا قادة حضارة ورواد نهضة.. إلى أن يكونوا من أصحاب التمكين في الأرض..

لذلك؛ عندما تنتهي السورة بالمشهد الأخير، وقد خرَّ ساجداً من خرّ، فإن تأويل الرؤيا الأولى التي ابتدأت بها

السورة، لا يكون تأويلاً فردياً عن انتصار يوسف كفرد، كشخص استطاع أن ينجو مما حيك ضده، بل هو تأويل بأبعاد أعمق ومسافات أوسع؛ ليس فقط خروج يوسف من السجن، ومن البئر، وتبوؤه أعلى المناصب، بل خروج قومه بمعيته من سجن البداوة إلى آفاق الحضارة..

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٢/١٠٠]..

ابتدأ الأمر برؤيا السجود، وتأول في نهايته بهذا السجود، بين السجودين،كان هناك ذلك التمكين في الأرض، التمكين الخاضع لله، الذي سيجمع بين عمارة الأرض، وبين الالتزام بأوامره وشريعته.. ابتدأ الأمر بالسجود، وانتهى بالسجود، وبين السجودين كانت هناك حكاية "فرد" وحكاية "أمة"، فرد خرج من سجن فرديته وبئر غربته وواقع عبوديته، إلى آفاق التمكين، وأمة خرجت، عندما تفاعلت مع هذا الفرد، من واقع بداوتها وتخلفها، إلى المشاركة الفاعلة في أهم حضارات عصرها..

❖ ❖ ❖

ابتدأ الأمر بالإنسان، بالنوع الإنساني، وقد وعى مكانته التي أعدّها الله له، وأعدّ في داخله كل الاستعدادات لتبوئها..

ابتدأ الأمر بالإنسان وقد وعى أنه مهم إلى درجة أن تسجد له الكواكب، والشمس والقمر.. وكان سجوداً تكريمياً للفرد الذي آمن بذلك..

وانتهى الأمر بالوصول إلى العرش، والسجود هناك..

لمن سجد إخوة يوسف ؟

هل كان هذا السجود سجوداً ليوسف؟.. هذا هو الرأي التفسيري الشائع بين الكثير من المفسرين، معللين ذلك أن هذا كان هو العرف في تحية الأمراء والملوك عندهم، وأن سجود أهله وإخوته له كان تأويل الرؤيا..

فلنعترف أن ذلك سيكون محبطاً قليلاً، فنحن في المشهد الأخير من تلك الملحمة الرائعة بسياقاتها التي لا تنضب، ونحن نتوقع معنى يتوج تلك السياقات ويربط خيوطها بعضها ببعض..

وسنحمد الله أن هناك قولاً تفسيرياً آخر لذلك السجود، وهو قول يتسق وينسجم مع الخطوط العامة للحدث في السورة ككل..

هناك قول [1]، أن الضمير في ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٢/١٠٠] يعود إلى الله عز وجل، الواحد الأحد الذي يستحق وحده السجود.. ويكون تأويل الرؤيا في هذه الحالة، مرتبطاً بالوصول للعرش، أو في سجود تراتبي، سجود من يوسف وأبويه لله، ومن إخوته له، عرفاً أو خضوعاً له..

(١) وهو ما اختاره الرازي ونقله القرطبي عن الحسن.

ما ابتدأ بالسجود، كان يجب أن ينتهي بالسجود، السجود لله عز وجل: وفي كل الأحوال، فإن ما قاله يوسف، بعد هذا السجود، هو جوهر السجود: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١/١٢]..

❖ ❖ ❖

وما ينسجم مع ذلك حقيقة أنه ربما كان السجود، حتى ولو بمعنى التكريم، قد منح لآدم، لكن ذلك كان مرتبطاً بلفظ غير ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ [يوسف: ١٠٠/١٢]، بالضبط كان مرتبطاً بـ ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر ٢٩/١٥، ص ٧٢/٣٨]..

وهذا يوحي أن الأمر، في سورة يوسف، لم يكن مشابهاً لسجود الملائكة لآدم، بل مرتبطاً بالسجود له عز وجل..

ها هو ذا المشهد يتوهج، يوسف، وأبواه، على عرش أعظم حضارات عصرهم، ساجدين لله.. خاضعين لله..

وبين السجودين، حكاية التمكين في الأرض التي هي جوهر السجود..

السجود وفتح الأبواب المغلقة

أمر يستوقفنا هنا.. أن هذا السجود، سيصير لاحقاً مرتبطاً بشكل مباشر بالفتح بمعناه الحضاري الواسع.... ولن يمضي وقت طويل على بني إسرائيل، ويوسف هو أول أنبيائهم في مصر، حتى يعودوا أدراجهم إلى الأرض

المباركة، وسيكون السجود علامة دخولهم، كما كان السجود نقطة انطلاق يوسف وإخراجه لقومه من البدو إلى الحضارة، ومن الظلام إلى السطوع..

كذلك عندما عادوا إلى الأرض التي وعدت لهم، كان السجود بمعناه العميق الواسع الذي يسكن هيئة السجود ويفعلها.. كان السجود هو مفتاح كل ما هو مغلق..

لقد كان مفتاح كل باب مغلق في وجوههم..

ولذلك..

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٢/٥٨]..

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ٤/١٥٤]..

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٧/١٦١]..

كان الدخول، الفتح، مرتبطاً بالسجود..

❖ ❖ ❖

كانت تلك الأرض قد وعدت لبني إسرائيل إذا عملوا وفق ضوابط محددة، ولم تكن هِبة إلهية لهم على مرّ الزمان، ولم تكن تلك الآيات "سند ملكية" يمنحهم تلك الأرض، كان الأمر مرتبطاً بتجربتهم المحدودة زماناً - ومكاناً..

"أرض الميعاد".. و "الأرض الميعاد"

هذا عنهم.. فماذا عنّا نحن؟..

هم وعدوا بأرض ما محددة، ولكنها مباركة، وكانت آية دخولهم إليها ذلك السجود الذي يفتح الأبواب..

لكن ماذا عنا، نحن الذين مثلت تجربة بني إسرائيل أمامنا، نموذجاً نتفحص سلبياته كي لا ننزلق إليها..

نحن أيضاً نمتلك وعداً مماثلاً، لكنه وعد مختلف، لأن ديننا مختلف، لم يأت لعرق أو لقوم أو لقبيلة، بل للإنسانية جمعاء، بينما تجربة بني إسرائيل كانت محدودة قومياً، وزمانياً، ومكانياً: بأرض مباركة بعينها.. لوقت محدد..

أما نحن، ولأن رسالتنا للنوع الإنساني ككل، فقد كانت **الأرض، كل الأرض، موعودة لنا، نحن الذين حملنا أول وعي إنساني بأنه الخليفة في الأرض، كل الأرض..**

ومرة أخرى هذه الأرض ليست منحة مجانية، بل هي إرث مستحق ضمن استخلاف الإنسان في الأرض، وكونه من المحسنين في ذلك، على ذلك الخيط المتوازن بين إعمار الأرض، والخضوع لله عز وجل، جوهر السجود..

ولذلك كان نصر الله مشروطاً بـ..

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٠-٤١]..

ستأتي إقامة الصلاة هنا، هيئة ومعنى، لتذكرنا بكل هيئاتها..

بالسجود خصوصاً، ذروة الاقتراب فيها، ليسلط "الضوء" على طبيعة مهمتنا في الأرض، كل الأرض، وعلى حيثيات نجاحنا، أو أسباب إخفاقنا فيها..

كل الأرض..

القمة هي في الأرض

أمر آخر يستوقفنا، مع يوسف فيما بين السجدتين، وهو أن الله - عز وجل - مكّن له في الأرض يتبوأ منها أينما يشاء..

ولكنه اختار أن تكون جبهته على الأرض، اختار السجود، ذلك الموضع الذي يقدح شرارة التفاعل، حيث تتحد الأقطاب، ويتدفق الإبداع من ذلك الرأس، ويجعل الإنسان كله يتفاعل مع الأرض ليعمرها، ويعيد بناءها ليصنع عالماً أفضل..

كان يمكن أن يتبوأ حيث يريد..

لكنه اختار أن يكون هناك..

هذا هو الامتحان لاحقاً، إنه يمكن لك أن تكون في أعلى الأماكن، ولكنك تفضل "القمة"..

القمة التي تعني أن تكون جبهتك على الأرض..

"العلو" و "الاستخلاف".. تشابه المظهر واختلاف الجوهر

وهذا يجعلنا نتذكر "تمكناً آخرَ"، له أدوات متشابهة، وربما متفوقة، عدداً وعدة، ولكنه "تمكن" سيختار مواضعَ أخرى، ولن يتجه أبداً إلى أن يضع جبهته في جبهة الأرض.. (إلا إذا كان ذلك شكلياً ومن أجل الحفاظ على مظاهر معينة)..

إنه التمكن الذي لن يفهم حقاً معنى أن يتوازن الخضوع لله مع إعمار الأرض، لن يفهم موقعه كخليفة مكلف بأن يقوم بدوره ضمن منظومة قيم ثابتة، وفي ظلِ إطارها..

إنه أن يتطاول في البنيان.. ولكن أن تنخفض "قيم" الإنسان..

إنه الضد من الاستخلاف، رغم كل مظاهر التمكين في الأرض..

إنه "العلو في الأرض"..

❖ ❖ ❖

لم يأت هذا اللفظ في القرآن الكريم، أبداً بشكل إيجابي.. ولا حتى مرّة واحدة..

وهو أمر علينا أن نتنبّه إليه، في غمرة انبهارنا بحضارات تناطح السحاب، أو تتبجح بذلك، فقد يكون

التطاول في البنيان علامة بناء حضاري حقيقي، قائم على أسس متينة، أسس تجعل جبهة هذا البناء في حالة خضوع لله عز وجل..

وقد يكون التطاول، محض علو في الأرض، على أسس فيها من التمرد على الله - عز وجل - ما يكفي ليجعلها هشة مهما بدت عالية، ومهما بدا البنيان مزخرفاً..

وهذا طبعاً ليس ترويجاً لحالة اللابناء، بحجة أن البنيان قد يكون علواً في الأرض، لا تمكيناً في الأرض..

لكن حالة اللابناء واللاحضارة التي نعيشها، يجب ألا تجعلنا ننبهر بمحض التطاول، بل علينا أن نتنبّه إلى الأسس، لكي لا يكون بناؤنا محض استيراد، نسخة مقلدة من علو متهاو.. لكي نفرق بين التمكين والاستخلاف، وبين العلو والتطاول، اللذين قد يكون فيهما بعض التشابه في بعض المظاهر..

لكن جبهة الأول، ستكون في الأرض، علامة السجود الذي هو رمز الاستخلاف..

أما الثاني فجبهته تتصور أنها تناطح السحاب، علامة العلو الذي مصيره الانهيار..

❖ ❖ ❖

ولا مرّة، ولا حتى مرّة واحدة، كان العلوّ البشري "إيجابياً".. في القرآن الكريم..

وكان العلو، رغم مظاهر القوة والازدهار، يرتبط دوماً بالفساد في الأرض والظلم وحتى الجحود..

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/٤]..

﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/٧]..

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ٢٧/١٤]..

وكان طلب عدم العلو، أساسياً في رسالة إصلاح المجتمع التي بعثها سليمان على سبأ ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٢٧/٣١]..

كما أنه كان محاولة إنقاذ أخيرة إلى قوم فرعون ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ [الدخان: ٤٤/١٩]..

وفرعون بالذات، كان رمزاً نهائياً للعلو والاستعلاء.. كان وقومه، نموذجاً ليس للطاغية المستبد فحسب، بل لحضارة الطغيان والاستبداد والاستعلاء، الحضارة التي ربما تقدم بناءً متطاولاً وفنوناً مبدعة، وعمارة مذهلة، وقوة عسكرية ضاربة، لكن ذلك كله يكون مبنياً على ظلم وفساد..

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٢٨/٤]..

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ١٠/٨٣]..

﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٣١]..

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/٤٦]..

فلنتنبّه هنا أن العلو الفرعوني في الأرض، فرّق الناس، كما لو أن "العلو" يستلزم تفريق الناس ليتمكن من أن يسود.. ويفسد في الأرض.. ولنتنبّه أيضاً إلى ملازمة صفة "الإسراف" لذلك العلو، هل يذكرنا ذلك بشيء نعيشه اليوم؟ ..هل هو قانون وسنة من السنن الكونية، التي تتعالى عن الأزمان والأمكنة، وتظل صالحة للعمل قبل خمسة آلاف سنة، وبعد ألف سنة؟..

التمكين: شرط العدل

وعلى الجانب الآخر من تلك القوانين والسنن، هناك ذلك التمكين في الأرض، قد يمتلك بعض المظاهر المشابهة، قد يمتلك بعض التطاول في البنيان، لكن "الحجر الأساس" سيكون مختلفاً جداً..

وهو أمر سيجعل كل شيء مختلفاً..

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ [الأعراف: ٧/١٠]..

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الحج: ٢٢/٤١]..

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٢/٢١]..

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ١٨/٨٤]..

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٢٨/٦]..

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٢٤/٥٥]..

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٧/٦٩]..

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧/٧٤]..

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٧/٦٢]..

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٣٨/٢٦]..

إذن مقابل العلو هناك ذلك الاستخلاف، التمكين المشروط، الذي يحكم بين الناس بالحق، ويقيم الصلاة، ويؤدي الزكاة.. ويكون ذلك حجر أساسه المتين، وضمانته الأكيدة ضد التسلق إلى الهاوية..

ومقابل فرعون، هناك داوود، وذو القرنين.. وابن الخطاب.. و ربما اسم آخر لطفل آخر يولد في هذه اللحظة بالذات، من جيل قادم لا محالة، مهما تأخر، مهما قيل: إنه لن يأتي، قادم، لا محالة..

"..لا يريدون علواً..."

إذن..

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: ٨٣/٢٨]..

إنهم لا يريدون علواً في الأرض، ليس لأنهم مساكين، عاجزون، غير قادرين، وإلا ما كانت الدار الآخرة لهم..

إنهم لا يريدون علواً في الأرض، لأنهم يريدون شيئاً آخرَ.. ويعملون على تحقيقه، يرونه في أحلامهم، ويتنفسونه مع أنفاسهم.. شيء آخر، هو جوهر وجودهم، يؤمنون بأنهم خلقوا من أجله..

التمكين في الأرض..

والعاقبة للمتقين..

قوانين الاستعلاء: اسجدوا لي!

ما علاقة هذا كله بالسجود؟

من قوانين الاستعلاء في الأرض أن من يعلو، سواء كان طاغيةً أم نمط حياة أم إيديولوجيا أم حضارة، يميل إلى أن يفرض "علوه" على الآخرين.. يفرض حكمه، نمط حياته، عقيدته، أو رؤاه.. بشكل عام..

قد يحدث ذلك قسراً واضحاً لا يحتاج إلى دليل، بالحديد والنار، وقد يحدث ذلك قسراً أيضاً لكنه غير واضح، بطرق قسر غير مباشرة كثيرة، ويتبجح أصحابها بحرية الرأي وحرية الفرد طوال الوقت، لكنهم في الوقت نفسه، يقسرون رؤيتهم على الجميع، عبر وسائل غسل الأدمغة، وصنعها وفق قالب واحد.. وينتهي الأمر في

الحالتين إلى نتيجة واحدة، فرعونية الطابع، سواء حصلت قبل خمسة آلاف سنة، أو بعد ألف سنة، (أو الآن!)..

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٤٠/٢٩]..

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٧٩/٢٣-٢٤]

قانون العلو، سيفرض ذلك: رؤية واحدة، وأنا ربكم الأعلى..

❖ ❖ ❖

حسن أيضاً.. ما علاقة هذا مرة أخرى بالسجود؟..

علاقته شيء نقوله في أثناء السجود، ونرتبط مباشرة بهذا المعنى.. ما الذي نقوله..

نقول: سبحان ربي الأعلى.. طبعاً..

..الأعلى منهم جميعاً

إنه ذلك التسبيح الذي يتخذ من السجود بالذات موضعاً لهذا الإعلان بالذات، الإعلان الذي لن يطرأ عليه أي تفسير، أو تحوير..

عند الأرض، وجبهتك عليها تحديداً، وأنت هناك في موضع التحامك الأشرف بك، بمهمتك، ستعلنها، أنه هو الأعلى.. وأنه مهما كان هناك علو، واستعلاء وتطاول، فإنه، عز وجل، تعالى عن أن يكون له مثيل، هو الأعلى، بلا مقاربة أو مقارنة..

مهما بدا الأمر صعباً، ومهما علا فرعون، ومهما علت حضارته، فارضين علوهم واستعلاءهم على الآخرين، فإن تلك التسبيحة، في ذلك السجود، تذكرك بقيمة أساسية من قيم هذا الكون، قيمة أن ذلك العلو، مهما بلغ، مهما بدا مبهراً ومزخرفاً وخاطفاً للألباب والأنظار، فإنه "محكوم" بالانهيار والأفول والهلاك، ما دامت آلية هذا العلو تقوم على تجاهل القيم الإلهية المؤسسة لهذا الكون كله..

"سبحان ربي الأعلى" عند السجود، تذكرك بهذا، ليس لتضمد جرحك عندما يكون فرعون ما، أو حضارة فرعونية ما، قد استعلت عليك وشردتك؛ فذلك يجب أن يكون مرحلة عابرة بكل الأحوال، لكن "سبحان ربي الأعلى" تذكرك أيضاً بأن بنيانك أيضاً، يجب أن يأخذ هذا كحجر أساس يستند إليه، وإنه عندما يعلو، يجب أن يكون ملتحماً بالأرض، ساجداً لله..

يجب ألاّ يكون بناؤك نسخة أخرى من بنيانهم الفرعوني، مهما كان مبهراً ومبهرجاً وناطحاً للسحاب.. لأن من هو "أعلى"، بقدرته وسننه وقوانينه، جعل الهاوية موضعاً لكل من يستعلي..

في سجودك، وأنت ملتحم بالأرض تسبح للأعلى، للأعلى دون منافسة، لمن هو الأعلى دون مقاربة، بقوانينه وقيمه ومقاييسه..

.. سبحان ربي الأعلى، سبحان الذي ليس له مقارب.. أو منافس..

وهناك أيضاً ما هو أعلى حتى من هذا، في هذه التسبيحة التي نقولها عند السجود..

هناك ما هو أعمق، وأعلى، وأقرب في آن..

"سبحان ربي الأعلى" تأخذنا إلى سجود الملائكة

تضعنا "سبحان ربي الأعلى" التي نقولها، عند السجود، في موضع خارج الزمان والمكان، في موضع الاستجابة للحظة هي فعلاً خارج الزمان والمكان، لحظة بدء الأمر، عندما كان أمر السجود الأول، يوم كان السجود لآدم..

إلى هناك.. تأخذنا "سبحان ربي الأعلى"، تجعلنا نسجد لله، مقابل ذلك السجود الملائكي لآدم..

كيف؟.. وما الذي يربط تسبيحة السجود هذه، بسجود الملائكة لأبينا آدم؟..

❖ ❖ ❖

"سبحان ربي الأعلى" هي استجابتنا في الصلاة لأمر إلهي بالتسبيح باسم "الأعلى"، أمر جاء عبر الخطاب القرآني مرة واحدة فقط، في سورة تحمل اسم "الأعلى"، وليس (٣) مرات كما في التسبيح باسم "العظيم"..

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلى: ٨٧/١-٥].

"سبحان ربي الأعلى" هي، حتماً وطبعاً، استجابة إنسانية لذلك الأمر الإلهي بالتسبيح..

ربما لا يمكن الجدال في هذا، لكن ما هو رابط هذا بسجود الملائكة لآدم؟..

جواب هذا موجود في ثنايا السورة ذاتها.. في الآية التالية تحديداً..

﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٨٧/٢].

لم يسجد الملائكة إلا بعد أن....

تأخذنا ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فوراً إلى حكاية خلقنا الأول، وبالذات إلى تفصيل مهم وأساسي ضمن هذا الخلق الأول، تفصيل كان ممهداً لشرف عظيم سيناله الإنسان بشكل حصري، ولن يناله أي أحد سواه من مخلوقات الله عز وجل..

ما هذا التفصيل، ولأي شيء مهَّد؟..

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/٢٩]..

"سويته" هنا، بأوسع معاني الإنضاج والإكمال والتهيئة، هي التي سبقت ومهدت لتلك النفخة الإلهية، من روح الله، والتي سنظل نتوارثها جيلاً بعد جيل، مع أن بعضنا سيحاول طمرها تحت ركام أشياء أخرى..

وتلك النفخة ما بعد التسوية، سبقت ذلك الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم، للنوع الإنساني.. ممثلاً في أبينا آدم..

◆ ◆ ◆

و ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلى: ٢/٨٧] تأخذنا إلى هناك بلا ريب، إلى تلك اللحظة المتوهجة على حافة الزمان والمكان.. إلى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩/١٥].. وذلك السجود الأول، السجود الوحيد الذي فعلته الملائكة..

تلك التسبيحة، تربطنا فوراً، بالذي خلق فسوى، الذي أدى إلى أن يقع الملائكة ساجدين، فإذا بسجودنا هنا مرتبط بالسجود هناك، وإذا بالمسافة بين السجدتين تتلاشى، كما لو أنه لا زمان هناك ولا مكان، وإذا بتلك النفخة، تلك الروح الإلهية التي في أعماقنا، تتوهج مرة بسجود الملائكة، ومرة بالسجود لله..

"سبحان ربي الأعلى" تستنفر وهج ذلك السجود الأول، السجود هناك، تستفز في أعماقنا ذلك الوهج، ذلك البريق الذي لابد أنه ملأ روح أبينا آدم وهو يرى الملائكة ساجدين..

وفي الوقت نفسه، فإن "سبحان ربي الأعلى" تجعل من سجودنا هنا، الامتداد الطبيعي، المتمم، لسجود الملائكة لآدم.. تلك التسبيحة، تجعلنا نقوم بذلك المشهد النهائي الذي لابد لآدم وأولاده جيلاً بعد جيل، أن يقوموا به.. خضوعاً وطاعة شاملة، ولكن أيضاً، معهما، عرفاناً لهذه المكانة، امتناناً لأنه بوأنا ذلك المكان، ونفخ فينا من روحه..

وجعل الملائكة يقعون ساجدين..

لابد أن نخرّ سجّداً مثل نجمة تخرّ وهي تبعث الضوء في أثناء سقوطها..

لقد سوانا.. فهل استخدمنا تلك التسوية؟

لكن ألم يكن من الممكن أن يكون ذلك أكثر وضوحاً؟..

أعني أن "سبحان ربي الأعلى" التي نقولها في الصلاة، في أثناء السجود، لا تقول ذلك كله بوضوح.. أو بمباشرة..

لكن من قال: إن ذلك كله يجب أن يكون مباشراً جداً؟..

لقد سوّانا أي أبلغنا الذروة، منحنا العقل، وأدواته كافة، ونفخ فينا من روحه: وبعد ذلك يجب أن يكون كل شيء واضحاً؟..

لا..

أن نكتشف بعض الأشياء، بما منحنا إياه من أدوات، بما أعطانا من معلومات، بذلك التوق الذي يسكننا.. لن يكون أمراً سيئاً على الإطلاق.. لقد وضع لنا الأزرار، ومنحنا الأنامل لنتلمس الدرب، والحدس لنميز الاتجاهات، والرغبة في النور..

لذلك، فعندما نضغط على الزر، ويتدفق النور، لا يكون ذلك بمعزل عنه أبداً..

"سبحان ربي الأعلى".. ويتدفق الضوء من كل مكان، وبالذات من موضع التحامنا مع الأرض..

بنية القدر الإلهي، دليل الهداية

وذلك ليس كل شيء مع "سبحان ربي الأعلى"..

ذلك أن التسبيح للأعلى، جل وعلا، مرتبط كذلك بأنه ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٨٧/٣].. وقدره هذا، هو كل ما بناه - عز وجل - في هذا الكون، وفق تقديره المسبق المتقن، إنه كل القوانين والسنن التي بني الكون عليها، والقوانين والسنن التي تنظم العلاقة بين هذه القوانين والسنن، إنها المنظومة المتكاملة التي بني عليها هذا الخلق كله، المنظومة التي كلما ازددنا معرفة بها، زاد يقيننا بقلة ما نعرفه، وهي المنظومة التي تقول، دون شعارات، دون خطب، بل بالصمت العامل الدؤوب: إن ذلك كله لا يمكن إلا أن يكون قد نتج من صنع إله له من الصفات ما يتطابق مع وصفه في القرآن الكريم، إنها الهداية العميقة المغروسة في بنية القدر الإلهي، الهداية التي تنبع من رؤية كاملة لهذا العالم، رؤية قد لا تدخل في تفاصيل الفيزياء والكيمياء - ولكنها تستشعر هذه البنية، تستشعر أن ذلك كله قد بني على قدر متماسك، وأن ذلك كله لا يمكن إلا أن يكون قد صدر من ذلك الإله الأعلى من كل مقياس، الأعلى من كل تصنيف..

والذي نسبح له، "سبحان ربي الأعلى".. عند السجود..

المرعى: العالم كله

وهو أيضاً ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/٤]..

سيقول هنا المتاقفون وأشباههم: إن هذا سياق تاريخي ناتج عن مرحلة البداوة، فالرعي والمراعي كلها كانت من الأمور التي تهم العربي، لذلك فإنه سينبهر ويتأثر بوصف الإله الأعلى، بأنه أخرج المرعى، أما الآن، وقد تركنا الرعي والبداوة، فإن الأمر لم يعد مؤثراً كما كان، إنه محض سياق تاريخي..

أو هكذا يزعمون..

والحقيقة هي أن هذا القرآن هو الذي أخرجنا من البدو، كما حدث مع أبوي يوسف آنفاً، لكن بفارق أن "البداوة" ليست مرحلة تاريخية أو موضعاً جغرافياً؛ إنها خيار نفسي واجتماعي وحضاري، خيار أن تكون على الهامش، خيار ألاّ تفعل شيئاً، وألاّ تنتج شيئاً، أن تكون محض مستهلك، أو تاجر ترانزيت في أحسن الأحوال، وعندها لن تكون البداوة مرتبطة بخيمة متنقلة في الصحراء، بل قد تكون في منزل فاره مليء بالأدوات الحديثة، وقد يكون "البدوي" هنا يتقن عدة لغات، أو على الأقل يستعمل كلمة من هذه أو تلك هنا أو هناك، من أجل الظهور بمظهر الحضارة، لكن ذلك لن يغير من حقيقة البداوة في أعماقه، ما دام على الهامش، ما دام لم يدخل في طور الحضارة حقاً..

والقرآن أخرجنا من البدو فعلاً، إلى آفاق غير محدودة لصنع حضارة حقة، لكن "بعضهم" يصر على العودة إلى "البدو"، ربما لأنه يرى أن عدم الفعل ترفٌ يستحق التضحية..

ولكن، من قال: إن ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ④﴾ [الأعلى: ٨٧/٤] تخص مرحلة البدو؟.. إنها نظرة بدوية جداً، أو إنها حديثة عهد بالخروج من البداوة، هذه النظرة التي تقصر "المرعى" على رعي الأغنام والإبل، وهو الذي لا إشارة إليه هنا على الأقل..

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ④﴾ [الأعلى: ٨٧/٤] تشير إلى كل ما وضعه الله - عز وجل - في باطن الأرض، مما يمكن إخراجه ورعايته واستثماره من أجل إنماء العالم وتحسينه وصياغته بشكل أفضل، إنها تشير إلى كل الثروات التي أودعها الله في الأرض التي وضع فيها الإنسان خليفة، وكل ما قامت عليه كل الحضارات، حضارات العلو كما حضارات الاستخلاف، كلها قامت على الاستثمار في وديعة الثروات هذه، ورعايتها، بفارق أن حضارات العلو ستستخدم في علوها واستعلائها، ويتحول الاستخدام هنا، مع الوقت، من مرعى إلى استنفاد إلى "غثاء أحوى"، كما تتحول النعمة إلى نقمة بالاستعمال السيئ الذي يفارق منظومة القيم، أما حضارات الاستخلاف فهي ترعى هذه الثروات وتستخدمها ضمن قيم ثابتة، قيم تضع التوازن في الحسبان، توازن المجتمع والإنسان والبيئة جملةً، وليس الربح أولاً وأخيراً، ومن بعد الربح الطوفان..

هذه الآيات الأربع، التي تتبع الأمر بالتسبيح باسم الأعلى، ليست آيات منفصلة ومستقلة بعضها عن بعض، بل إنها تلتحم معاً، لتقدم لنا إضاءة ساطعة، على سجودنا لله تعالى، ومعناه، وهذا الالتحام المضيء هو التحام متتابع، وتتابعه يصب في سياق المعنى..

فالأمر يبدأ طبعاً بالذي خلق فسوى، فلقد كانت هذه التسوية، الذروة التي صنعنا الله بها، بكل الإمكانات والأدوات التي وضعها في داخلنا، والتي من أجلها جعل الملائكة يقعون ساجدين للإنسان الأول، وهذه الأدوات والإمكانات الكامنة هي نفسها التي ستستخدم في الآية التالية ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٨٧/٣]، ففهم بنية القدر الإلهي، بنية الكون المتوازن، والمنظومة التي أسس عليها، تتطلب أساساً تلك الأدوات التي كانت جوهر "التسوية" الإلهية لنا.. ولأن "الهداية" ليست تأملاً نظرياً في الكون وإطلاق كلمات الإعجاب ببنيته والإيمان المجرد بخالقه، بل هي مشروع عمل حقيقي يعمل على صنع العالم بشكل أفضل، فذلك يحيلنا فوراً إلى الآية التالية ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: ٨٧/٤]، فصنع العالم يتطلب استثمار الوديعة الإلهية في الأرض، ورعايتها وإنمائها، من أجل رعاية الأرض وإنمائها، وعدم تحويلها إلى غثاء أحوى إنها رعاية وإنماء خاضعان لله تعالى، كما في السجود..

إنها التسبيحة التي تضيء، وتجعل الضوء يتدفق منا، من رؤوسنا، مثلما هو متدفق من الأرض التي هي المرعى..

قصة حب

لكن الأمر له، أيضاً وأيضاً، معان أخرى لا تقل عمقاً..

فاعتبار الأرض التي هي موضع الخلافة والتكليف "مرعى" لنا، لكي نرعى الثروات والخيرات التي فيها، سيؤثر فوراً في علاقتنا بالأرض، لأنها ستصير موضعاً لرعايتنا، وليس مكاناً لاستنفاد الثروات ومراكمة الأرباح بأقصى سرعة ممكنة..

علاقتنا بالأرض -المرعى ستكون علاقة حميمة؛ علاقة فيها تناسق وحب ورعاية أكثر مما فيها من الاستغلال قصير النظر، فاعتبار أن الأرض "مرعى" سيستوجب الإبقاء على كونها كذلك، والرعاية بالتعريف فيها من الحب أكثر مما فيها من أي شيء آخر..

وليس هناك مظهر يدل على هذا الحب أكثر من عناق تلك الأرض..

العناق الذي نقوم به في أثناء سجودنا عليها...

كيف لم نتنبّه لهذا؟ كيف لم ندرك أن السجود لله، يتضمن أيضاً ذلك العناق المليء بالود للأرض، موضع الخلافة، مناط التكليف، الأرض التي خلقها الله لنا وخلقنا بهذا الشكل والسوية، لنكون لها...

إنه العناق للأرض: بحب، بتواصل، باحتواء...

إنها "المرعى" الذي ترعاه، وخلال رعايتك تحقق ما خلقت من أجله..

وكل هذا في السجود..

قهر الطبيعة

هذه الرؤية التي ترى أن الأرض هي مرعى يجب المحافظة عليه بقدر ما يجب استثمار كنوزه، هي رؤية معاكسة ومضادة تماماً لرؤية الحضارة السائدة الآن، التي هي رؤية تعتمد على مبدأ "قهر الطبيعة"، "غزو الفضاء"، "ناطحة السحاب".. وكلها تعبيرات تحتوي في داخلها على رؤية هذه الحضارة للطبيعة وتعاملها معها؛ تعامل قائم على أن هذه الأرض تضم مورداً للربح يجب اغتنامه بأقصى وأقسى طريقة، ولو باستنفادها، ولو بنهب ما للآخر وسلبه.. ولو بتدمير وتخريب توازنها و منظومتها عبر استنفاد جزء وتخريب آخر..

إنها الرؤية التي تنطلق من مفهوم أنهم "قادرون عليها" والتي تتصرف على هذا الأساس حتى لو انتهت بدمار لاحق بموعد آجل..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ليونس: ١٠/٢٤].

"ظن أهلها أنهم قادرون عليها": في مرحلة ما..

لكن ذلك سيؤدي حتماً إلى الخراب في مرحلة لاحقة....

❖ ❖ ❖

فرق كبير أيضاً بين من يرى الأرض مرعى وهو عليها خليفة مسؤول عن إنمائها وإنباتها وإعمارها، وبين من يراها "فريسة" وصيداً يجب اقتناصه..

... بقي أن نتذكر هنا أن ذلك على الأقل حضارتهم، فعلهم، رؤيتهم..

أما نحن، فلا نزال في مرحلة اللافعل، وكل ما فهمناه من مرحلة الأرض "المرعى" كان حسب مفهوم البدوي.. مفهوم الكسل والارتخاء وانتظار ما لن يأتي..

وفرق كبير ما نحن عليه وبين ما يجب أن نكون عليه..

لكن جيلاً آخر، قادماً لا محالة سيكون له شأن آخر....

علامة على الطريق..، علامة على الوجوه

.. عندما يتحول السجود من مجرد هيئة من هيئات الصلاة، إلى مفهوم جسماني يحتوي على منظومة المعاني و القيم التي تشكل جوهر الوجود الإنساني، فإن تلك المعاني ستتغلغل بالتدريج في عقول أصحابها، ستغير من سلوكهم، ستغير من شخصياتهم، ستقدح شرارة تفاعل متبادل، ربما لا يكون سريعاً جداً ولا ضاجاً جداً، لكنه تفاعل جواني عميق، تفاعل داخلي يمكن أن يقدح زناد شرارة تفاعل خارجي..

المعاني محمولة عبر الهيئات، عبر التصاقنا بها، عبر تكرارها الذي لا فكاك منه إلا بالانفصال من الإسلام نفسه يمكن لها أن تحدث تفاعلاً ما، مع كل ما هو نحن، وتغير جزءاً مما هو نحن، ربما جزء بسيط في البداية، لكن التفاعل يستمر: يزيل أشياء، ينتج أجزاء ويغير أجزاء... بالتدريج وكما تكونت القارات، قد تنتج من فرد

كان يبدو عادياً، قارة جديدة، قارة مختلفة تساهم في بناء عالم آخر...

عندما يبدأ ذلك بالحدوث، فإن أول تباشيره، تكون أن (السجود) يكف عن أن يكون نقرات على الأرض.

بل سيكون دقات على أبواب العالم، عالم يساهم السجود في بنائه وإعادة تشكيله.....

❖ ❖ ❖

وسيكون لذلك علامة؛ لن يأتي بلا إنذار مسبق، بلا تمهيد، لن يأتي فجأة.... بل سيكون هناك إشارة، سيكون هناك علامة...

وستكون علامة "فارقة"........

وستكون علامة على "الوجه"....

علامة واضحة، على وجوه من يحملون تلك المعاني، وذلك السجود علامة تميزهم من غيرهم، تعرفهم بها......

تعرفهم من "سيماهم"....

"سيماهم التي على وجوههم"..

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩].

السجود، كهيئة، يترك أثراً كالندبة على الجبهة....

أما السجود، كقضية تعيش من أجلها، تتنفسها بكل أعماقها، بكل أعماقك، فهو يترك أثراً أعمق وأوضح من الندبة على الجبين....

إنه أثر على الوجه كله... وليس على الجبين فقط..

الوجوه ستبدو مشعة بشيء غريب، بنور عميق، الوجوه ستشع بالحياة، بالفعالية، بالإيجابية، ستبدو مضيئة ووضاءة بطريقة غريبة، سيتدفق منها النور، ستكون مميزة لا في القسمات أو الملامح، بل بتلك الكهارب، كهارب العمل من أجل البناء.

تلك هي سيماهم الحقيقية، جيل السجود ذاك، الجيل القادم لا محالة، ستكون علامة السجود على وجوههم، دلالة على أنهم تركوا البداوة حقاً وانخرطوا في صنع الحضارة الحقة..

جيل السجود ذاك ،الذي سيصحح مسار التاريخ....

فلنأمل أن يكون أولادنا منه....

أو أننا، أو أنهم، سيمهدون، سنمهد لقدوم هذا الجيل..

جيل السجود..

❖ ❖ ❖

ولن يكون غريباً، أن ترتبط علامة السجود، بالمثل القرآني بزرع مثمر ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩].

لن يكون غريباً أن يرتبط السجود على الأرض بالإنبات، بالزرع المثمر، الذي يخرج من الأرض؛ فالأرض هي موضع الالتحام، موضع التكليف، إنها المرعى والمنبت..

❖ ❖ ❖

ولن يكون غريباً أن تكون الآية هي خاتمة السورة التي تتحدث عن الفتح المبين، سورة الفتح...

ذلك هو الجيل، جيل السجود، هو ذاته جيل الفتح..

وإذا كانت الفرصة قد فاتتنا لأن نكون من هذا الجيل..

فإنها لم تفت في أن نمهد له، أن نحرث له الأرض، أن ننثر بذوره التي ستكون يوماً ما زرعاً استغلظ واستوى....

أن تكون أجسادنا سماداً يصلح له الأرض ويزيدها خصوبة....

لم يفت الأوان، على الأقل، لذلك...

❖ ❖ ❖

الخاتمة : آلية الاقتراب..

سيقولون: المسافة بيننا وبين جيل السجود، جيل الفتح، بعيدة.

وهذا صحيح.

من حيث نحن الآن...، من حيث نقف، فإنها بعيدة جداً.. ولا أستطيع، وربما لا يستطيع أي أحد، إلا أن يوافق على ذلك..

إنها مسافة هائلة، ولكن هذا البعد بين ما نحن عليه، وما يجب أن نكون عليه، يجب ألاّ يمنع المحاولة..

ألاّ يحبط محاولة أخرى..

ألاّ يحبط محاولة الاقتراب...

مهما كان ذلك الجيل بعيداً، علينا ألاّ نكف عن الاقتراب...

❖ ❖ ❖

لكن كيف؟ كيف نقترب من جيل السجود؟ وهل لهذا الاقتراب من سبيل؟

نعم، إنه القرآن، يدلنا على آلية الاقتراب هذه، إنه يعلمنا كيف نقترب ونقارب، مع ما يبدو من البعد، ومن وعورة المسافة.

آلية الاقتراب هذه، من جيل السجود، بسيطة في ظاهرها عميقة في باطنها....

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ٩٦/١٩]..

إنها آلية عبر السجود نفسه، السجود نفسه يجعلنا

أقرب إلى حقيقتنا، يجعلنا أقرب إلى الحقيقة الأهم في هذا الكون، يجعلنا أقرب إليه، وأقرب إلينا، وأقرب إلى ما يجب أن نكونه...

يجعلنا أقرب إلى الأرض، كما لو أننا نعانقها...، منها خرجنا، وإليها نعود، وبين الخروج والعودة لدينا هذا الوقت الذي هو كل رصيدنا، وإعماله في هذه الأرض هو كل امتحاننا.

السجود يجعلنا في تماس مع الأرض، موضع استخلافنا، كما لو أنه يذكرنا بكل ما يمكن لإبداعات رؤوسنا أن تفعله في هذه الأرض....

السجود يجعلنا في وضع أقرب إلى وضع الجنين، قريبين من رحم الأرض، كما لو أننا سنخلق من جديد، بهذه الصورة كما لو أن السجود سيعيد تشكيلنا من جديد... (بلى إنه يفعل، لو تركناه يفعل..).

السجود يجعلنا أقرب إلى كل ذاك، وسجود بعد آخر، يجعلنا أقرب إلى ذلك الجيل... جيل الذي ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩]..

جيل الفعالية والنشاط والحضارة...

خطة الاقتراب سهلة وبسيطة كما تلاحظون...

ويمكن تلخيصها بكلمة واحدة:

الاقتراب، سجوداً...

دمشق ٢٦ محرم ١٤٢٩ الموافق ٢٠٠٨/٢/٣م

بنك القارئ النهم

بعد التطور المذهل في وسائل الاتصال والمعلوماتية أصبح من الضروري التواصل مع القراء الأعزاء عبر شبكة الإنترنت والبريد الإلكتروني نظراً لسرعته وفعاليته وقلة كلفته.

لهذا استبدلت الدار بقسيمة القارئ النهم الورقية رقماً تدخله من خلال موقع الدار، فتنفتح لك بطاقة تسجل عليها المعلومات، ويصبح لك رصيدك من النقاط، وتستلم نشرة عن إصدارات الدار ونشاطاتها الثقافية، و تستفيد من حسومات خاصة على الكتب.

هذه اللصاقة نافذتك للاشتراك في بنك القارئ النهم.

بتواصلك معنا، نرتقي بصناعة النشر

اطلب أيقونة بنك القارئ النهم في موقع دار الفكر وأدخل رقم الكتاب الآتي على الموقع.

e-mail:fikr@fikr.net

www.fikr.com

The Physics of Meanings
Fizyā al-Ma'āni
Aḥmad Khayrī al-'Umarī

كيمياء الصلاة ٤
فيزياء المعاني

(كيمياء الصلاة) سلسلة تتحدث عن الصلاة التي يجب أن تكون، عن الصلاة التي تقويك، وتسندك، وتكون معولك ودرعك وبوصلتك ورادارك.. عن الصلاة بوصفها (المعادلة) التي تعيد النظام لعالمك.. إنها تتحدث عن الصلاة بوصفها منظومة متكاملة، للفرد وللمجتمع، من أجل بناء فرد ومجتمع أفضل. بعبارة أخرى: إنها الصلاة من أجل النهوض..

هذه الحلقة (فيزياء المعاني)، تنقل الضوء إلى هيئات الصلاة (القيام، الركوع، السجود)، فإذا بكل منها مثل طراز معماري يعبر عن إنسان النهضة والحضارة. كل هيئة من هذه الهيئات مثل عبوة مليئة بالمعاني، لا يمكن للمعاني أن تحفظ إلا في داخلها، يصير القيام قياماً بالمهمة التي خُلقنا من أجلها. والركوع انحناءً للعقل أمام الله، والسجود التحاماً بالأرض موضع الاستخلاف، معرفة هذه المعاني، وتمثلها في الصلاة، سيجعل من هيئات الصلاة بمثابة حركات منتظمة على درب بناء المجتمع، ومن ثم الحصول على استحقاق الفردوس الأخروي.

Twitter: @ketab_n
16.12.2011

ISBN -9953-511-69-1
9 789953 511696

تصميم الغلاف: يمان بطيخة